رزان

محمد الجمَّال

رزان

محمد علي الجمَّال

الطبعة الأولى (نوفمبر ٢٠١٦)

تصميم الغلاف: عبد الله رجب

المراجعة اللغوية: هبة النجار ـ التنسيق الداخلي: إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

إشراف عام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع: **2016/21200**

الترقيم الدولي: **978-977-6534-21-6**



Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing



رزان

(رواية)

محمد علي الجمَّال



إهداء

إلى زوجتي العزيزة، التي ساندتني حتى خرجت هذه الرواية من مخيلة عقلي، ومن صور مبعثرة في ذهني إلى أسطر تلتقطها أعين القارئ، وتتسلل إلى سمعه، لنتبادل القصة حكاية في المنزل، وليس كتابة على ورق أو كلمات في صفحات.

....

وإهداء آخر إلى الدكتور (هاني طه)، الذي شجعني وفاض عليّ بخبراته حتى وصل هذا الكتاب إلى النور.

....

الأدب والطب

نظرتُ إلى الشعراء والأدباء والمؤرخين فرأيت حالهم وزهد عيشهم بين روايةٍ ينتظرون بيعها، أو جائزةٍ يترقّبون حصادها.. يُخرجون العمل الواحد في بضع سنوات ليفيء عليهم بعائد لا يكفي بضعة أشهر، بعد أن تخلّوا في سبيله عن مأواهم ومركَبهم وتحمّلوا عتاب الآباء وصراخ الأزواج وبكاء الأبناء، وبعد أن قعد بهم الحاسدون وثبّطهم الحاقدون... فأشحتُ بوجهي عن الأدب وامتطيت حصان الطب، وخيلاء العلم... وركبت سفينة الإنسانية، وعشت في الأحلام والأفكار وتخيّلتُ الدولار والدينار... فلما وقعتُ على الحقيقة، واتضحتْ في عيني الرؤى، ربتُّ على كتف الطبيب، ورفقتُ لحاله وماله وزوجه وعياله، ثمّ لم ألبث أن قبّلتُ قلم الكاتب، ويد الشاعر وصفحات المؤرخ... وخرجتُ من صمتٍ قريب، وهمستُ في أذن الأديب: "أنت الطبيب".

محمد الجمال

هل تكافئ القيم والمثل الإنسان بأن تتمثل له في هبة ترفع قدره وتعلي شأنه؟

أم أن الهبة قد تتحول إلى نقمة تودي بصاحبها إلى غيابات الهلاك وأحضان الخسران؟

لا بد إذا أن يعلم الإنسان أن موهبته لابد وأن تظهر يومًا... ربما حين يحتاجها، ثم لا يجد سواها فتكون له قارب النجاة..

ربما أقرب مما يعتقد..
كل ما عليه هو أن يثق أنه بالفعل موهوب.. ولد على ذلك... بالفطرة.

الفصل الأول

"جميعنا لا ندرك أننا تغيرنا إلا بعد أن نكون قد تغيرنا إلى الأبد..."

- "ألو!"

- "أيوة يا (نادر).. أنا (رزان)"

- "مش ممكن إيه المفاجأة دي!؟"

- "إزيك يا (نادر)؟"

- "إنتي فين يا بنتي؟ وحشتيني جدًا.. إيه اللي حصل؟ إنتي بخير؟"

- "أنا بخير. أنا بس حبيت أسلم عليك علشان يمكن مش هعرف أشوفك تاني"

- "ليه!؟ (رزان) فيه إيه!؟ إزاي أوصل لك؟ إنتي فين؟ أنا مستعد..."

- "أنا حبيت أشكرك على إنك ادتني دفعة للحرية وحسستني بإمكانية الحياة. صحيح أنا حياتي كلها غلط لكن إنت كنت السبب اللي دفعني للتفكير في تصحيح كل حاجة"

- "(رزان) أرجوك.. أنا عاوز أقول لك حاجة، أنا برغم إني اتعرفت عليكي بالطريقة دي، أنا عارف إن ده جنان، لكن أنا حسيت براحة ناحيتك.. أنا لازم أشوفك"

- "خلي بالك من نفسك يا (نادر)، إنت اللي فعلًا مختلف.."

- "طيب ممكن أشوفك؟ أنا عاوز أتكلم معاك.. ضروري"

- "معتقدش"

- "يعني أنا اتكتب عليا كل ما أرتاح لحد يفترق عني!!؟"

- "إحنا اتكتب علينا نفترق قبل ما نتجمع أصلًا! اللي زيي مش من حقها تحب.. سلملي على روحك الحلوة.."

- "(رزان)! متقفليش الخط.. (رزان)!....(رزان)!"

*****

على باب بيت ريفي متهالك في أحد أركان عزبة غزالة الواقعة بمدينة سرابيوم، والتي تبعد بدورها خمسة وثلاثين كيلو متر عن مدينة الإسماعيلية، وقف المهندس (محمود صبري) وزوجته (خديجة) يحاوران رجلًا في منتصف العمر يلبس جلبابًا ريفيًا من اللون الأزرق الفاتح يظهر تحته صديري أبيض اللون، بدت عليه علامات الجدية الممزوجة بخبث خلّفته سنون الخبرة في المعاملات التجارية ومحاولة المستأجرين المستمرة لبخسه ثمن إيجار المنازل القديمة أو شراء بيوت الفلاحين التي يعمل بها سمسارًا، والتي لا ترقى في كثير من الأحيان لسكنى البشر، سماها (العقارات) ليوهم نفسه بالانشغال الشديد، ويعمق مفهوم الأهمية في رأسه ورأس سكان الحي.

كان يغمض عينيه بين الحين والآخر في أثناء حديثه، لو لم يفهم مخاطبه أن هذا جزء من طبعه وشخصيته لظن أنه ينام لبضع دقائق قد تصل لساعات أثناء الحديث، أو على الأقل مصاب بمرض الصرع البسيط. كان يحلف القسم واحدًا تلو الآخر ليبيع بضاعته، يقسم على الثمن الحقيقي المطلوب الذي طلبه المالك، ثم لا يلبث أن يقسم على التخفيض الرهيب الذي تفضل به على المشتري، وكيف أنه خسر عمولة يده وقد باع مثله من قريب بأضعاف السعر إلى رجل أجنبي ترك جميع المناطق الراقية، وجاء إلى عزبة غزالة لثقته في كلمة السمسار وذوقه.

كان (محمود صبري) رجلًا في أوائل الأربعينيات، خمري اللون، متوسط الطول، يرتدي قميصًا أزرق اللون وبنطالًا أسود، تلونت عيناه باللون البني الداكن الذي صبغ به شعره، دقيق الأنف، متوسط الفم، تظهر عليه علامات الشخص الـ(مطحون).. ذلك الشخص الذي خلّف الزمن فيه ما خلّف، وترك عليه ما ترك.

بدا يحمل همًا أحس أنه وحده المسؤول عنه والمطالب بتسويته، عميق الفكر، مندفع في كلامه، يقسم هو الآخر مرتئيًا أن القسم هو السبيل الأوحد لتصديقه والوصول إلى السعر الذي يريد به شراء البيت.

ـ "والله العظيم ده كل اللي معايا" خالطًا ذلك القسم برائحة السجائر التي تفوح من فمه كفوهة بركان أُطفئت منذ قليل، وتحريك تلك الساعة التي يحتاج لهزها كل حين ليتأكد أن عقاربها لازالت تعمل. كان يجادل السمسار قي الجنيه والجنيهين، بدا فعلًا يائسًا، ولولا الرجولة لتحول إلى شخص آخر، شخص أكثر ذلًا، لترجى السمسار أو قبّل يده.

أما (خديجة) زوجته الواقفة بجانبه متابعة الحوار بانتباه شديد، تلك المرأة البيضاء الوجه التي انتصف بها العقد الرابع مرتدية حجابًا زهري اللون وعباءة اختارتها خصيصًا لهذه المنطقة الشعبية متفادية نظرات الجائعين وكلام المتطفلين وألسنةالعوانس. كانت في غاية الحسن والجمال، تفوح منها رائحة الأنوثة والكمال، ورثته عن أمها التي انتزعها الدهر هي وأبوها قبل ستة أعوام أثناء تأدية فريضة الحج، ذلك اليوم المحفور في ذاكرتها، بعد أن تدافع الناس للوصول إلى رمي الجمرات مسفرًا عن وفاة أكثر من ثلاثمئة حاج، منهم من وطأته الأقدام ومنهم من لم يتحمل شدة الحر، تركاها وهي حديثة الزواج بـ(محمود) الذي كان جارها في العزبة، التي سرعان ما أدركت أن مصيرها قد ارتبط بمصيره وحياتها قد التحمت بحياته، علمت أنه كل ما تبقى لها، فأخلصت له ووهبته نفسها وحياتها، بيد أنه لم يكن محظوظًا في رزقه كما تقول (خديجة) دومًا، فقد تخرج من كلية الهندسة/قسم ميكانيكا منذ تسعة أعوام، حالمًا بالعمل في شركة متعددة الجنسيات كمهندس يعطي الأوامر ويستوطن مكتبه، يبدل كل يوم بدلة جديدة ويلبس الساعة الروليكس ويمسك بمفتاح سيارته المرسيدس. إلا أنه سرعان ما اصطدم

بالواقع بعد أن كلت قدماه بحثًا عن عمل، وجد نفسه يعمل في ورشة سيارات لا يميزه الزبون عن صنايعي الميكانيكا، يصرخون فيه أن (أسرع) ويرمون أسباب تعطل سياراتهم المتهالكة إلى تقصيره وسوء ذمته، عمل لساعات عجز عن إحصائها وأيام عجز عن تجاهلها. تبدلت الشركة المتعددة الجنسيات إلى شركة بدون جنسية، بل بدون ترخيص، واختفت فكرة إملاء الأوامر ليحل محلها تقبل الصراخ، وارتدى الـ(عفريتة) مكان البدلة، و(الأستيك) مكان الساعة، والسيارة المرسيدس تحولت إلى ركوب (أتوبيس) الفائز فيه من يصل إلى مكانه سليمًا، دون خدش أو جرح أو سرقة أو سباب أو امرأة قررت أن ترتمي بظهرها في أحضان رجل، ثم تصرخ: "الحقوني!" لافتة النظر إلى حجم تضاريسها وتفرد عودها!!

كل هذا اختفى من عالم طموحات (محمود)، وحل محله واقع مرير لم يتخيل يومًا أن يكون واقعه. كان أكثر ما يقلقه هو نظرة الناس إليه وإن كانوا ينادونه: "يا باشمهندس".. إلا أنهم لم تختلف نظرتهم له عن صبيه (بلية) الذي كان لا يخجل من أخذ البقشيش، أما (محمود) فكان يرفضه ترفعًا وكبرياء، ثم يعود أدراجه نادمًا على ذلك.

كان شأنه شأن معظم الشباب الذين نشؤوا في الأحياء الريفية من أب فقير وأم غير عاملة، لا يملكان معاونته إلا برفع روحه المعنوية، طبعًا بالإضافة إلى النصح والإرشاد اللذين لا يخلوان من العتاب واللوم ملقين أسباب الفشل عليه أن لو كان في كلية الطب لما كان ذلك حاله.

ظل (محمود) يصارع مصيره إلى أن لاحت له فرصة الأحلام؛ فقد عرض عليه عميل (أصبح صديقه لاحقًا) بعد أن أصلح سيارته المرسيدس في الجراج الذي يعمل فيه (محمود) أن يسافر معه إلى ألبانيا ليعمل في مجال استيراد وتصدير قطع غيار السيارات، ذلك الحلم الذي طالما ملأ عقل (محمود)،

حلم السفر، وتلك الرؤيا التي راودته حيثما تنفست رئتاه الهواء، رؤيا الترحال؛ رأى أحلامه في تلك اللحظة كما يرى الظمآن شربة الماء، وحين تتراءى للمريض حبة الدواء، ويستمع السكير إلى قرقعة الإناء.

كان يظن في البداية أنها مزحة ثقيلة من صاحب المرسيدس.. "تيجي معايا تشتغل في ألبانيا؟ شغلانة محترمة ومرتب محترم بدل البهدلة اللي انت فيها!"

لم يلبث حينها صاحب المرسيدس أن طمأنه مُخرِجًا له بعض الصور التي كعادة المصريين لا يقتنعون إلا بها، مهما أتيتهم بأدلة ورقية أو مستندات وتأشيرات؛ فالصورة لها طابع خاص ورونق وجمال يعلو ما ختم بختم النسر وما أقسم عليه شيوخ الأزهر. كانت صورة لرجل المرسيدس في مدينة تيرانا الألبانية، عاصمتها وروحها، وهو يقف أمام محل مضيء بإضاءة زاهية مكتوب عليه كلام بلغة لا يفهمها قبل أن يقوده ذكاؤه المحترف وحسه المترف إلى أنها قد تكون اللغة الألبانية.

بجانب الرجل تقف فتاتان أجنبيتان ذواتا شعر أصفر وبشرة بيضاء أدت إلى تدلي الفك السفلي لـ(محمود) صاحبه انقباض في عضلات المثانة وترهل في عضلات القلب، إلا أنه سرعان ما تذكر خطيبته (خديجة)، التي سال عليها لعاب سكان المنطقة واستأثر هو بقلبها، وتذكر ذلك الصراع المرير مع والدها المتوفى حين تقدم لخطبة ابنته، كيف لم يكن راضياً عن أوضاع (محمود).. "يابني انت ماحيلتكش حاجة... جاي تتجوز بنات الناس ليه!؟"

تذكر أيضا إصرار (خديجة) على (محمود)، وتحدي أهلها ومحاولة الضغط عليهما إلى أن لان والدها لينًا مشروطًا أعطى فيه (محمود) مهلة سنة لتحسين أوضاعه.

نفض (محمود) الفكرة عن رأسه ولا تزال عينه لا تغادر الصورة؛ فلم يكن ليبيع (خديجة) بعد أن أحبها واختلط قلبه بقلبها، رأى فيها نفسه وأهله وعياله، وإن كان قد ذهب عقله إلى أن لا مانع من بعض الصحبة المحترمة الوطيدة المحتملة مع بعض الفاتنات الشقراوات الألبانيات.. كما في الصورة.

لم يفهم (محمود) لماذا اختاره رجل المرسيدس! ربما لأنه وجد فيه الصدق والأمانة!؟... أم أنه بالفعل رجل طيب يريد مساعدته، رجل رثى لحاله بعد أن رآه يسحل تحت السيارات ويرتدي ثياب أهل المغارات.

كان كالغريق الذي تعلق بقشة، حزم أمره ووثق بالرجل بعد أن فاتح أهله الذين أبدوا مخاوف كثيرة مفضلين أن لو كان العمل في الإمارات، وبالذات في أبوظبي.. "أصلها مدينة أمان وفلوسها كتير".. هكذا قال والده، أما أمه فاكتفت بمباركة خطواته بعد أن دعت له وذرفت دموعًا غزيرة.

أما والد (خديجة)، فبرغم اعتراضه على حال (محمود) إلا أنه رأى أن سفرة ألبانيا (بعد أن علم أنها في شرق أوروبا) فألًا جيدًا وبصيصا مباركًا لم يملك حينها إلا أن سرّع بتزويجه نجلته حتى ترافقه، ولئلا تتعلق بأحبال ذائبة في انتظار عودة الحبيب.. بارك لـ(محمود) الزيجة على مضض، بطريقة من لا يملك كل الخيار، ولم تخل مباركته من بعض النصائح النبيلة لـ(محمود): "خلي بالك من الإيدز!"

انتقلت حياة العروسين إلى محطة أخرى لم يظنا أنهما عرفاها من قبل أو حتى درساها في مواد الجغرافيا أو شاهداها في التلفاز.. إلى ألبانيا.

جمهورية ساحرة بطبيعتها وسهولها، هي إحدى دول إقليم البلقان جنوب شرق أوروبا، يحدها الجبل الأسود من الشمال الغربي وكوسوفو من الشمال الشرقي، أما شرقها فترى فيه جمهورية مقدونيا بينما تقع اليونان في جنوبها،

تلك الدولة الديمقراطية البرلمانية التي فتحت أبوابها للاستثمار الأجنبي خاصة في مجال البنية التحتية وتطوير الطاقة.

وبرغم أن ألبانيا جمهورية ديمقراطية برلمانية، إلا أن الصراعات العرقية والطبقية والدينية انتشرت خلالها وظهرت عصابات السلاح وتجارة المخدرات، خصوصًا أنها لا تزال بلدًا فقيراً بمعايير أوروبا الشرقية.

بدا الزوجان سعيدان في مدينة تيرانا حيث عمل (محمود) مع صاحب المرسيدس في دكانه، التي بدت لأول وهلة معرضًا لبيع قطع غيار السيارات، سرعان ما كشف لـ(محمود) أنها غطاء لتجارة غير مشروعة: تجارة المخدرات وتجارة الرقيق الأبيض، صحيح أنه لا يتعامل مباشرة في هذا الاتجار بنفسه، إلا أنه أدرك خطورة ما ينتظره.

أخفى الحقيقة عن زوجته (خديجة) خشية عليها وترفقًا بها إلى أن يجد المخرج المناسب في الوقت المناسب.

بشرت (خديجة) بعد عامين بطفلة كامنة في أحشائها، أخبرها شيخ صوفي ذو لحية بيضاء طويلة، يسكن في قرية مجاورة، تبدو عليه علامات الصلاح وكرامات الأولياء أن سيكون لهذه الطفلة شأن، كرامة (يوسف) وريشة (سليمان)، طفلة تعاني في الحياة لكن تنتصر على الشر، يسير خط حياتها موازيًا لدور طويل في لعبة الشطرنج ذات الرقعة الذهبية.

ومع إثقال حمل (خديجة) وتلك الأخبار المتتالية، كان لابد أن يصارحها (محمود) بملابسات عمله، وإن كانت تمر بظروف صعبة، لم يعد الموقف يحتمل مزيدًا من الانتظار والمراوغة، إما أن يأتي مولوده على أصل شريف أو يلحق به العار إلى الأبد.

صدمت (خديجة) في البداية، عاتبته ولامته ثم اتخذا قرارهما بالعودة إلى مصر وإن كان ذلك يعني العودة إلى نقطة الصفر.. لا يهم.. نقطة الصفر عندها خير من حياة محمولة على جناح طائر يوشك أن يقع.

استقال (محمود) من دكان رجل المرسيدس المشبوه، بعد أن أظهر الرجل استياءه من ذلك التصرف المباغت: "أنا عملتك من لاشيء وجبتلك فرصة الأحلام، لكن شكلك مش وش نعمة"

تركه يغادر بعد تهديد ووعيد بأن لا يتكلم عن أي شيء رآه في المحل، بل طلب منه نسيانه أصلًا، نسيان من سقط على رأسه من سفح جبل فوقع على مركز الذاكرة في المخ.

*****

عاد الزوجان لينتظرهما شماتة الناس وإشفاق الأصحاب. لم يجدا غير منطقة ميلادهما ليبدأا فيها حياتهما من جديد، خاصةً في ظل هذا الضيق المادي الشديد، ليقفا أمام السمسار الصعيدي ذي الجلباب الأزرق متمسكين بثمن الشراء عشرة آلاف من الجنيهات، بينما يتمسك السمسار بثلاثة عشر. حُسِمت بعدها المعركة لصالح (محمود صبري) وزوجته بعد أن اختلس السمسار نظرة إلى وجه المرأة الحسناء وهي تبتسم ابتسامة ساحرة حولته إلى بقرة صفراء توشك أن تعوي كما تعوي الذئاب معلنًا انتهاء رحلة من التعب لاصقت الزوجين غير المحظوظين، ليدخلا في مرحلة جديدة قد تخبئ لهما من الحظ... نصيب.. أو مفاجأة.

*****

جلس (محمود) على كرسي خشبي في ذلك البيت المتواضع الذي يتكون من غرفتين وصالة صغيرة بها كنبة وحيدة وكرسيين بنيين من الطراز القديم

مطرزين باللون الأحمر يعكسون تفرد ذوق من اختارهم ويؤكدون أنه كان يعمل سابقًا بائع قماش راقصات في شارع محمد علي، وتلك المرآة في الردهة التي أوحيت فكرتها من أفكار الطبقة الأرستقراطية إلا أنها نفذت بأفكار الطبقة التحت سفلية تاركة من ينظر فيها يتخيل نفسه ويخمن ويتوقع صورة لتلك الخيالات التي يراها وحجم الأبعاد المتمثلة أمامه، أما الغرفة الأولى فحدث ولا حرج، لو أن توت عنخ آمون خرج من مقبرته وقرر بناء دولاب، لكان هذا الدولاب الخشبي بمقابضه الحديدية الثقيلة وزخرفه الذي يشبه الرسم السريالي الذي لا يفهمه إلا صاحب اللوحة وذلك السرير الذي قدر عمره بألف سنة، تحيطه جدران أوحت بأن السكان السابقين لم يتغذوا إلا على الطعمية ومشروب الكركديه، بينما يقود دهليز صغير يسمح لشخص واحد فقط بالوقوف فيه إلى غرفة يتوسطها سرير صغير تتحرك مرتبته عن أصله إذا تمت محاولة النوم عليها.

لم يكونا يملكان المال الكافي ليشتريا تلفازًا فاكتفيا بمطالعة الجرائد والانشغال بأعمال البيت؛ فقد حتمت عليه الحياة الجديدة طابعًا خاصًا وسبيلًا فريدًا وخيارًا واحدًا.. العمل.. فالعمل.. ثم العمل.

مرت أيام نسي فيها (محمود) أنه كان يومًا مهندسًا، عمل في ورشة قريبة تحت مسمى معلم ميكانيكا، لكن براتب صبي، يرأس الورشة رجل أصلع يظن سكان المنطقة أنه الأخ الأصغر لهرقل.. فظ، بذيء اللسان، يقضي نصف يومه في أحجار الحشيش الملغمة بنكهة الشيشة ويتحدث عن نفسه وطريقته السحرية التي اخترعها لإنبات الشعر في رأسه، تراه تحسبه أنه أحد رجال الدولة المهمين الذين أبقت عليهم الدولة في أماكنهم للتمويه، يأكل الكثير من (اليوستفندي) كما يسميه، وينفخ البذر كما تنفخ الأفعى السم، يجالس بعض أصحاب الدكاكين المجاورة الذين لا تكل أرجلهم ذهابًا وإيابًا

إلى ورشته طامعين في نكتة جديدة أو حكاية أسطورية أقسموا على تصديقها قبل أن ينطق بها.

كان دخل (محمود) يكفي بالكاد قوت يومه، اضطرت (خديجة) لذلك أن تتناسى أنها تخرجت من كلية التجارة، شعبة محاسبة، وأنها يومًا كانت متفوقة، لتعمل خياطة في المنزل تخيط لجيرانها وبعض المنتفعين ملابسهم مقابل جنيهات قليلة قد تسهم في الرفق بحالهما.

تتابعت الأيام بسمفونيتها المؤلمة، وموسيقاها الصاخبة، ازداد فيها نضوج الزوجين، وازداد معه وحم (خديجة) على الجمبري (الروبيان) التي أصبحت تراه رؤيا العين كل ليلة ويسيل لعابها لذكره، أما (محمود) فظن أنها تنتهز فرصة الحمل لتحظى بالجمبري: "اللي عمر أهلها ما شافوه!"

كان في أشد الأهبة لسماع تلك الصرخة التي تعني أن ناقوس السعادة قد بدأ بالرنين وأن العالم قد سئم الأنين وقرر أن يواسي الزوجين... سمعها أخيراَ لتعلن عن نهاية حقبة من الماضي الأليم وظهور بشرى لمستقبل ينتظراه ولقدر يرتقبانه.

ابتسمت الممرضه في مستشفى الإسماعيلية:

ـ "مبرووك، مولودة زي القمر ما شاء الله... ربنا يخليهالكم"، ثم اتسعت رقعة ابتسامتها لتظهر ضروس العقل، انسحبت بعدها بعد أن وضع (محمود) نصف جنيه في كفها أدى إلى انصرافها كما ينصرف العفريت حين يسمع آيات الذكر.

اقترب (محمود) من (خديجة) وقد أخذ الإعياء والإجهاد منها مأخذًا، أمسك بيدها قبل أن تشير إلى المولودة بجانبها، رمقها بعمق شديد وشغف، أراد أن يحتضنها بقوة لولا خوفه من عدم خبرته في حديثي الولادة، شهق شهقة ثم

أخرج زفيرها بكلمة: "يا الله! إيه القمر ده!؟ بسم الله ما شاء الله، دي زي الملايكة!"

ابتسم ابتسامة حنونة، ثم احتضنها لتبكي في أحضانه خليطًا من بكاء الماضي ودموع الفرح، بعد أن تهللت حياتهما بتلك الهدية الصغيرة.. (أميرة).

*****

كرست (خديجة) نفسها وجهدها لملاكها الصغير إلا من جهد صغير في خياطة الأقمشة مستمرة في مساعدة (محمود) خاصة بعد أن زادت المصاريف وأعباء الحياة.

أما (محمود) فكان يعمل ليلًا ونهارًا ليعود بجنيهات متواضعة، نمت حياتهما بابتسامة (أميرة) التي أعادت لهما نضرة جلودهما بعد أن جفت نسائم روحيهما.

لم يجمعا الكثير من الأصدقاء منذ عودتهما، ربما تجنبًا لشماتة المتطفلين، كان فيها صديق (محمود) الأوحد (عصام طه).. كائن فضائي، قصير متدلي الكرش، حليق الذقن والشارب، يهتم بتساوي (سوالف) شعره أكثر من اهتمامه بأولاده الثلاثة، يضغط شعره بـ(چيل) يعتقد صانعوه أنه صنع بالخطأ للحام الطائرات، تسليتهما الوحيدة هي لعبة الطاولة التي يقضيان فيها ما تبقى من يومهما في قهوة شعبية تنتفخ سماؤها بدخان الشيشة.

أما (خديجة) فاكتفت بجارتها (سعاد).. التي تكبرها بعدة سنوات، مدرسة لغة عربية، تلبس نظارة سميكة أصبحت جزءًا من جلد وجهها والتصقت بعظمة أنفها، تطيل الجلوس مع (خديجة) التي تتأفف أحيانًا من ثقل زيارتها، خصوصًا أنها تبنت دور الناصحة المخلصة لـ(خديجة) في كل حياتها، تدخلت في تفاصيل مطبخها وكم مخزونها، وفتحت ذهنها إلى صغر عمل

زوجها وتدخلت في علاقتهما السريرية: "لا لا لا! ده شكله محتاج فياجرا".. حسبت معها المصروفات وعدت الغيارات قبل أن تختتم ذلك بتحذيرها من عقوبة السبع شعرات التي تخرج من حجاب (خديجة) أثناء الصلاة.

كانت خمس سنوات كافية لتترعرع فيها أغصان (أميرة) لتصبح كأغصان البساتين، ونمت روحها لتقترن بورود الياسمين، انسدل فيها شعرها البني ولانت بشرتها البيضاء ولمعت عيناها البنية الخضراء، بدا من الوهلة الأولى أنها طفلة مميزة، تنطق بكلمات الكبار وتعرف لغات الضحك، بدأ فيها والديها الشعور بوخز كلام الشيخ الصوفي الذي لقياه في ألبانيا، وإن كانا لا يصدقان تكهنه إلا أنهما يتمنيانه.

كان وقع كلام (محمود) شديدًا على (خديجة) حينما ضاقت به الحياة يومًا وأعيته ثقل مصاريف البيت ومتطلبات الصغيرة، فانفعل قائلًا: "يا ريتني أبيع بنتي زي الأبهات اللي بيعملوا كده! أنا شكلي ظلمتكم معايا. أنا مكانش ليا حق الجواز من أصله!"

خاصمته (خديجة) بضعة أيام معتبرة ذلك فألًا سيئًا في حياتهما، إلا أنها لم تلبث أن صفحت عنه بعد أن أدركت ثقل ما يحمل في قلبه وتفهمت شعوره.

قضت (أميرة) طفولتها بين أحضان والديها اللذين علماها بدايات القراءة والكتابة بكامل طاقتيهما تعويضًا عن شعورهما بالذنب لعدم قدرتهما المادية على إلحاقها بحضانة، فصارت تكتب جملًا زادتها نبوغًا عن الأطفال في مثل عمرها.

عشقت كتابة كلمات غير مفهومة عن وصف والدها، وابتسامة أمها الذهبية ورسمت في أوراقها صورًا لأبيها وقد تشحم وجهه من إصلاح السيارات وتشققت يداه من تغيير الإطارات، في نفس الوقت الذي رسمت لنفسها

صورًا لأحلامها ولعروستها ذات الشعر الأحمر، لمدرستها التي تتطلع إلى رؤيتها، وأصحابها في الصف التي كونت معهم صداقة لم تبدأ بعد.

كل هذا رسمته بمخيلتها وقلمها الصغير في غرفتها الصغيرة وعلى سريرها.. نامت فيه ذات يوم فرأت رؤيا جلية وحلمًا ملونًا.. رأت رقعة شطرنج عملاقة تقف فيها الأحجار منتصبة باللون الأسود تريد أن تهاجمها، ترسم خطًا أشبه بخط الحياة في كف اليد، ضربتها بكف يدها الصغيرة فأطاحت بها جميعًا.

*****

كانت المدرسة التي لطالما انتظرتها (أميرة) وشيكة، أعلنت اقترابها من الست سنوات، ذلك الحلم الذي يرسم على وجهها بسمة ويبعث في قلبها بهجة. حكت لجيرانها عليها وسألت عن لباسها الموحد وزادها غموضًا شغف ما تنتظر، حتى أفاقت يومًا لا تصدق أنها تلبس تلك المريلة الكحلية والحذاء الأسود، وتصفف لها والدتها شعرها ضفائرًا قبل أن يأخذاها في أول يوم إلى باب أحلامها.. باب المدرسة.

منذ يومها الأول احتلت (أميرة) مكانتها في المدرسة، ملكة كملكات النحل في الخلية، جريئة واثقة، خفيفة الظل، أدت إلى تساؤل المدرسين عن موهبتها الذي سرعان ما حسمته مس (مديحة السواف) ناسبة الفضل إلى نفسها وطريقة تدريسها المبتكرة التي اخترعتها أثناء مشاهدة أحد الأفلام الأجنبية، تلك المرأة التي اختلفت أماكن التضاريس في جسمها، وتحبب وجهها من كثرة التفكير في خواتم اليد التي في أصابع قريناتها، تضع جميع أنواع الماكياج في عينيها لتشكل قوس قزح لا يرى إلا في مكانين: على سفح جبل.. أو في فصل الشتاء.

الفصل الثاني

"السفينة التي تقترب منك لا تعني دائمًا أنها سفينة النجاة"

في العاشرة صباحًا، يوم الجمعة..

تحركت خطوات أطفال العزبة سعيًا إلى الظفر بيوم الجمعة، منهم من يذهب إلى أقاربه ومنهم من يختلط بأصدقائه. يتبسم أهلها في وجوه بعضهم ويلقون السلام على من يعرفون ومن لا يعرفون، يميزهم سماحة النفس وطيب الخلق، إلا أن الفقر كان العنوان السائد لهذه العزبة؛ فهي تعتمد اعتمادًا فرديًا على محاصيل الزراعة التي يقوم ببيعها الفلاحون في داخل وخارج المدينة، والتي تكفي بالكاد احتياجاتهم اليومية لسد الجوع ومصاريف المدارس.

كما كانت تربية المواشي تعد المورد الثاني للدخل الفردي، والتي تنوعت بين تربية الأبقار والجواميس والدواجن والأرانب. اجتمعت بعض بنات العزبة اللاتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة والحادية عشر يلعبن في ملعب صحراوي مفتوح تحده عارضتان خشبيتان صنعهما الأطفال الأكبر سنًا، لتكون مرمى تسجيل الأهداف دون شباك.

كانت الأرض الصحراوية الصغيرة برغم عدم انبساطها تعد المكان الذي يجتمع فيه الأطفال لممارسة أنشطتهم الرياضية، والتقاء الأصدقاء والصديقات.

اجتمعت هؤلاء البنات الصغيرات يلعبن بكرة (شراب)، وهي ما توفرت حينذاك، لتضفي عليهن سعادة لا يجدها لاعبو الكرة في كؤوس العالم الرسمية. يلبسن جلابيبهن التي تقطع بعضها دون استجابة الأهالي لتغييرها، تتنوع ألوانها وأشكالها إلا أنها تجتمع في أنها جلابيب (فلاحي) ثقيلة. أخذن يلعبن الكرة بين تمريرات وركلات، وفي وسطهن تلك البنت ذات الست سنوات الفائقة الجمال، ببشرتها البيضاء الصافية وعيونها الخضراء البنية وشعرها البني المغبر، تُظهر براءة فاقت براءة القمر في السماء الصافية

وتلبس جلبابًا صغيرًا ذو لون أخضر داكن. لم تكن الفتاة إلا (أميرة)، أجمل بنت في القرية. كانت تلعب بكرتها المطاطية الوردية الصغيرة، كأنها تشارك البنات لعبهن، تفرح لفرحهم وتحتار لهزيمتهم.

صاحت بنت أكبر منها بعدة أعوام تلبس غطاء للرأس:

ـ "ابعدي يا (أميرة)! روحي العبي بالكورة على جنب. هتتعوري يا بت!"

ابتعدت دون أن تنظر إليهن، تركل الكرة وتركض خلفها، ولا يهتم لها أحد، دخلت الكرة من باب صغير مفتوح لبيت من الطين يشبه باقي بيوت العزبة، نظرت حولها قليلًا تفكر، ثم دخلت إلى الباب وراء كرتها، نظرت تبحث عنها.

لمحت قدمين لرجل بالغ، بها وشم يشبه السيف في خلف القدم وصولًا إلى الكعب، رفعت عينيها لترى رجلًا يرتدي جلبابًا وتحته صديري أبيض، نظرت إليه في صمت فقال بابتسامة عريضة لم تخف ملامح وجهه الحادة:

ـ "أهلًا يا حبيبتي، بتدوري على الكورة؟"

هزت رأسها إيجابًا.

ـ "إنتي بتلعبي لوحدك ولا إيه؟ ليه مش مع أصحابك؟"

ـ "مش بيخلوني ألعب مع الكبار، بيقولولي امشي يا بت إنتي لسة صغيرة"

ضحك الرجل.

ـ "بكرة تكبري وتلعبي معاهم"

ـ "أنا كبيرة خلاص"

ازدادت ضحكته، قبل أن يردف:

ـ "إنتي اسمك إيه؟"

ـ "(أميرة)"

ـ "الله! اسم جميل أوي، اسم على مسمى.. إنتي فعلًا شكلك برنسيسة.. (أميرة) يعني"

ـ "تعالي إنتي بنت مين؟ شكلك بنت الحاج (فتحي) مش كده؟"

هزت رأسها نفيًا..

وضع يده على شعرها، وملس عليها:

ـ "بسم الله ما شاء الله إيه الجمال ده!؟ ده إنتي قمر!"

نظر نظرة إلى زوجته ذات الجلباب الأسود التي كانت تجلس في ركن أمام فرن تخبز فيه الخبز، بادلته النظرة بالنظرة وقد فهم كل منهما مغزى الآخر، التفت إلى الطفلة مرة أخرى.

ـ "طيب عاوزة الكورة؟"

ـ "أيوة.."

أمسك بالكرة، ثم ألقاها ناحية الغرفة البعيدة حيث كان بابها مفتوحًا، فدخلت الكرة إلى الداخل.

ـ "خدي الكورة يا حبيبتي"

ركضت وراءها، أمسكتها وهي تنحني، وقبل أن تعتدل انقض فجأة يكمم فمها بمنديل أزرق، زاد حدة الضغط بأصابعه القوية، أرادت أن تصرخ لكنها لم تستطع.. كانت تحاول المقاومة ولكن هيهات، كانت تضرب بأرجلها ضربات تشبه أصابع ضعيفة حكت بطن شمشون الجبار، بدأت قواها تخور إلى أن سقطت على الأرض.

أخذ شريطًا لاصقًا وضعه على فمها، وما لبثت أن أحضرت زوجته شوالًا بنيًا كان سابقًا للبطاطا، وضعاها سويا داخله وأحكما ربطه، ثم أمسك بتليفونه المحمول القديم وطلب رقمًا:

ـ "أيوه يا (خالد) هات العربية حالًا، ومتنساش تحملها بالخرفان.."

بعد مرور عشر دقائق كانت سيارة بيضاء من فئة نصف نقل واقفة أمام المنزل، تحمل بعض المواشي من الخرفان والنعاج، يجلس فيها سائقها (خالد) الذي لم يخرج من السيارة، خرج الرجل من بيته يحمل ثلاثة (أشولة) متشابهة اللون، ثم قال:

ـ "خلاص جبت العلف، يللا بينا"

وضعها في أرض السيارة بجانب المواشي إلا أنه رفع الشوال الذي يحمل الفتاة ووضعه بجانبه في مقدمة السيارة، وما أن انطلقت السيارة حتى أمسك الأرضية الجلدية للسيارة، وأزاح ناحية منها ووضع في تجويف معدني بجسمها الشوال الثالث، ركب بجانب السائق، وانطلقا.

بعد عدة أمتار من بداية تحرك السيارة سلم عليهم بائع السوبر ماركت الذي كان يقضي معظمم وقته خارج الدكان:

ـ "مساء الفل يا حاج اتفضل.."

ـ "تسلم يا باشا.."

انطلقا قليلًا، فقال السائق:

ـ "أمان يا (أبو العينين)؟"

ـ "أيوة أمان، الحرز ده لسة طازة، مافيش تلت ساعة"

"تبع مين؟"

(أبو العينين):

ـ "لأ..لأ..لأ.. إحنا قلنا منسألش"

ـ "خلاص يا حج، على رأيك السؤال مالوش لازمة"

ـ "أيوة كدة، عاوز تستمر في الليلة دي وتلهف الخمستلاف باكو اللي بتلهفهم كل أول شهر متسألش، ولا كأنك شوفت أو سمعت.."

قبل أن ينهي كلامه كانت أمامهم لجنة الجيش المكونة من عسكريين يلبسان ثيابهما العسكرية، أمامهما مطب كبير ظن الكثير من السكان أنه صنع خصيصًا لتخريب السيارت، وبعيدًا عنهما ببضعة أمتار يجلس عسكري آخر ببندقيته المفوهة الجاهزة لاصطياد أي سيارة قد تهرب.. أو تفكر بالهرب.

أوقف (خالد) السيارة، حاولا التظاهر باللامبالاة بطريقة يبدو وكأنهما ألفاها.

فتح (خالد) الشباك..

العسكري: "الرخص لو سمحت"

أخرج (خالد) الرخص من جيب في سقف السيارة وناوله إياها.. نظر العسكري إلى الرجل الذي يجلس بجانب السائق قبل أن يسأله:

ـ "على فين؟"

ـ "نلقط رزقنا ونبيع حبة المواشي، دعواتك يا دفعة".. أجاب (أبو العينين)

ـ "على فين يعني؟"

ـ "على مصر" (يقصد بها القاهرة)

ـ "بالتوفيق، ممكن أبص على العربية؟"

خفق قلب الرجلين، قال السائق:

ـ "اتفضل يا دفعة.. دي شوية مواشي للبيع وشوية علف، رزق العيال الشهر ده"

دار العسكري حول السيارة، ثم أشار إليهما بالانصراف بعد أن أعاد رخصة السيارة إلى السائق، وتحرك زميله لرفع القمع الأحمر ليفسح لهما الطريق، مضياَ بالسيارة، فتنهد (خالد):

ـ "نفسي أعرف بتجمد قلبك إزاي كده"

ـ "قالوها في الأمثال زمان.. إن خفت متعملش وإن عملت متخافش"

انطلقا في رحلة استغرقت قرابة الساعتين..

وصلت السيارة إلى قرب فيلا صغيرة في منطقة الهرم بالقرب من طريق مصر الفيوم، توقف السائق عند باب الڤيلا الأسود المعدني، فتح من شرفة صغيرة بواب الڤيلا الذي ألقى نظرة على السيارة:

ـ "مش قلنا لوحدك يا حج (أبو العينين)!؟"

ـ "متقلقش السواق أمان"

فتح الحارس الباب، فإذا ببهو كبير تحركت فيه السيارة إلى أن وصلت إلى باب الڤيلا الداخلي، نزل (أبو العينين) وطلب من السائق الانتظار.

دق الباب، ففتح له رجل قصير القامة بعد أن أغلق العين السحرية بالباب.

ـ "اتفضل يا حاج"

أومأ (أبو العينين) بيده إليه أن (انتظر)، عاد إلى السيارة وفتح الأرضية التي بجانب السائق وأخرج الشوال الصغير، كانت الفتاة بالداخل قد أفاقت

تصدر مواء يقترب من مواء القطط، أدخل الجوال من الباب وأشار له الرجل القصير:

ـ "ورايا"

مشى وراءه إلى أن وصل إلى سلم يؤدي إلى الدور الأرضي أو البدروم، نزل (أبو العينين) ومعه الشوال دون أن يتوقف أنين الفتاة بداخله.

نظر إلى المكان الواسع ذي الغرف الكثيرة الذي لا يوحي بوجوده من المنظر الخارجي للفيلا، انتظر قليلًا حتى حضرت سيدة في أوائل الخمسينيات من العمر، ترتدي تايير (أسود) به رقع ذهبية، ملامحها كبيرة وشعرها بني غزير، بدت عليها ملامح الصرامة واضحة، حضر معها رجل عجوز قصير، ذو لحية بيضاء قصيرة، يرتدي بنطلونًا وقميصًا واسعًا، وقد فقد نصف شعره من منطقة الوسط.

قالت السيدة:

ـ "بقالك فترة شغلك بعيد عن المواصفات يا (أبو العينين)، الزباين بقوا طلباتهم كتيرة وبينقوا براحتهم"

ـ "ماتقلقيش يا ست (سلوى)، المرة ده البضاعة هتعجبك، سن صغير وجمال رباني، دا أنا ولله جبتها بالعافية، حاجة لسة فريش يعني"

أشارت إلى الرجل القصير بجانبها، فتحرك ناحية الشوال الملقى على الأرض، جلس يفك خيوط ربطته، كانت الفتاة تجلس في وضع القرفصاء وقد تشمر فستانها فوق منطقة الركبة، مكممة بمنديل أبيض وعليه شريط لاصق أسود اللون، يغطي شعرها عينيها، تقوم بالرفس بقدمها في مكانها وتتلوى كما تتلوى الأفعى الجريحة، أخرجت (سلوى) سيجارة وأشعلتها، ثم نفثت دخانها، قبل أن تظهر ملامح الفتاة، كانت الفتاة تتصبب عرقًا.

رفعت (سلوى) حاجبيها عندما رأت الطفلة الجميلة البيضاء ذات العيون الخضراء.

نظرت إلى (أبو العينين):

- "مطلوب فيها كام؟"

- "وغلاوتك عندي دي تعبتني لغاية ما..."

قاطعته:

- "عايز فيها كام؟"

- "عشرين ألف جنيه"

- "مش كتير!!؟"

- "يا ست هانم ده المخاطر اللي بلاقيها ما تتوصفش، وعيلتها القريبة من البيت.."

أشارت إليه إشارة السكوت، ثم أشارت إلى الرجل القصير بجانبها:

- "(مصيلحي)، اديله المبلغ"

"يا ست هانم ده مبلغ كبير، وهو بيشتغلنا..."

قاطعته مرة أخرى:

- "اديله العشرين ألف"

أخرج (مصيلحي) محفظة سوداء، جلس يعد النقود، وقد بدأ يسيل لعاب (أبو العينين).

- "اتفضل"

- "تؤمريني بحاجة تانية يا ست هانم؟"

ـ "لأ، بس اختفي اليومين دول لغاية الشغل الجاي"

غادر الفيلا، توقفت (سلوى) تنظر إلى الفتاة لبضع دقائق، اقتربت منها، وأزالت الشريط اللاصق، صرخت الفتاة:

ـ "ماما! ماما!"

ـ "ماتخافيش يا حبيبتي، أنا هوديكي لماما"

أعادت الشريط اللاصق على فم الفتاة، وأخذت تفكر.

*****

في عزبة غزالة، في بيت (أميرة)، جلست والدتها ذات الجلباب الفلاحي الأصفر:

ـ "الحقني يا (محمود)، البت مارجعتش، كانت بتلعب معاهم، البت شكلها تاهت أو...."

أخذت تبكي حتى عجزت بقية الكلمات عن الخروج من فمها..

ـ "يا شيخة إن شاء الله مفيش حاجة إن شاء الله، ممكن تكون تاهت بس وحد هيلاقيها ويجيبها"

تحرك (محمود) وأخذ يركض يمينًا وشمالًا في العزبة، لم يترك طفلة إلا وسألها، أجاب بعض الأطفال أنها كانت تلهو في وسطهم ولا يعلمون أين ذهبت، أخذ يسأل البيوت المجاورة، ومن بينها زوجة (أبو العينين) التي نفت رؤية الفتاة، عاد في آخر النهار حيث كانت تنتظره زوجته، ارتمت في حضنه وظلت تصرخ: "(أميرة)! (أميرة)! مش قلت عاوز تبيعها أهو ربنا خدها بعيد عنك! حرام عليك!"... ثم انهارت مرة أخرى تبكي بكاء من لم يبك من قبل.

جلست الفتاة ذات الست سنوات على سرير يشبه أسرة المستشفيات في غرفة شبه مظلمة، منفردة وقد نُزِع عنها الشريط اللاصق، إلا أن يديها كانتا مقيدتين خلف ظهرها، كانت سارحة في اللاشيء، عليها نظرات الحزن والأسى، وكان على الأرض ترتكن فتاتان في أعمار الثمانية، مقيدتان بحبال خلف ظهريهما، وقد ارتمتا على بعضهما كمن نامت على كتف الأخرى.

نظرت (أميرة) إليهما وإلى آثار العنف الواضحة على قدميهما، إحداهما تلبس فستانًا قصيراً، والأخرى تلبس بنطلونًا أزرق وبلوزة بيضاء، وعليها بعض بقع الدم، أشاحت (أميرة) بوجهها بعد أن أحست أنها قد غادرت الأمان، وغادرت حضن والدتها.. ربما إلى الأبد... دفنت رأسها بين قدميها وأخذت تبكي بلا توقف، كان على طاولة قريبة منها سماعة طبيب وقطع شاش وضمادات ضاغطة، أخذت تقلب نظرها محاولة تفحص تفاصيل الغرفة لتدرك أين هي، أحلم تراه في وضح النهار؟ أم حقيقة وواقع هي فيه؟ لا تدرك كثيراً من فلسفة التفاصيل، إلا أنها كانت تدرك أن مكروهًا ما قد أصابها، وأنها لم تعد في بيتها.

كانت يداها مربوطتين معًا بشريط لاصق رصاصي اللون يكفي لدحض مقاومة فتاة صغيرة في مثل عمرها.. صرخت فجأة: "ماما! أنا عاوزة ماما!".. فتحت أضواء الغرفة فجأة، دخلت (سلوى) ومعها (مصيلحي) وطبيب يلبس معطف المعمل الأبيض الذي لم تلمسه مكواة منذ عدة أيام، ربما أعوام، رجل أبيض اللون، ذو شعر مجعد ولحية خفيفة رثة، اقتربت (سلوى) منها، ربتت على شعرها في ارتعاد من الطفلة وانقباض.

- "حبيبتي، ماما وبابا حصلهم مشكلة ومش هيقدروا ييجوا تاني، اتخبطوا بعربية في الطريق، سافروا شوية عند ربنا، إحنا هنبقى أهلك هنا لغاية ما يرجعوا، ماتخافيش إحنا زي أهلك"

حركت (أميرة) رأسها:

ـ "لأ.. أنا عايزة ماما"

تابعت (سلوى) كأن لم تسمعها:

ـ "عمو الدكتور هيكشف عليك وعلى صاحباتك علشان يتأكد إنكم كويسين"

دخل الطبيب واقترب من سرير (أميرة)، التقط السماعة الطبية التي كانت على الطاولة، وضعها في أذنه واقترب منها، كانت في استسلام تام دافعه الذعر وعدم التصديق، كشف الطبيب على عينيها، ثم وضع السماعة على بطنها وأخذ يسمع أنفاسها، امتدت يداه إلى الأسفل فذعرت الطفلة، إلا أنه تفحصها لثوان من بعيد، ثم التفت إلى (سلوى)، ووضع سماعته:

ـ "تمام كويسة، شوية خوف نفسي واضطراب بسيط"

أمسك دواءً بيده وصب مجموعة مليجرامات منه في غطاء بلاستيكي، واستقبل (أميرة):

ـ "افتحي بؤك يا شاطرة"

أشاحت بوجهها، فقالت (سلوى) في حدة:

ـ "إحنا هنا الكلام بيتسمع مش عاوزين دلع مفهوم!؟ ده علشان تخفي وترتاحي شوية"

سقاها الطبيب الدواء، ابتلعته في مضض، ثم سالت دموع غزيرة على وجهها دون صوت، حركت أنفاسها في صعوبة، أغمضت عينيها ثم نامت في هدوء.

قالت (سلوى):

ـ "بكره الصبح تخلي (بدوية) تفورها"

غادرت (سلوى) بسيارتها المرسيدس الحمراء التي يقودها سائق طويل يقترب من الالتصاق بسقف السيارة، يلبس بدلة زرقاء، بعد أن فتح لها الحارس بطريقة يوحي فيها بالإجلال والتقدير، أخرجت تليفونها المحمول الذي كان يرن ووضعت السماعة على أذنها:

ـ "أيوة يا (حسن)، أنا راجعة.... إنت مالك اتأخرت ولا اتنيلت!؟ مش الأكل عندك في البيت، والفلوس في الدرج إنت عارف مكانها، اتعشى وما تستنانيش.. (دينا) نامت ولا لسة؟ طيب خلي بالك منها ومتخرجش إلا لما آجي"

أغلقت السماعة دون أن تنتظر رد (حسن) [زوجها] في الجهة الأخرى، سرحت بتفكيرها، وتنهدت.

السائق:

ـ "أطلع على فين يا مدام؟"

ـ "أي حتة، أنا زهقانة، اطلع على النيل..."

*****

وقف الفريقان الأسود والأبيض في لعبة الشطرنج في وضع تحدٍ يفكران في الخطوة الافتتاحية.. "ألعب أنا ولا تلعب انت؟".. قالها صاحب الأحجار البيضاء.

أجابه صاحب الأحجار السوداء:

ـ "لأ.. ابدأ أنت.."

*****

أفاقت (أميرة) على صوت كحكحة فتاة طويلة ذهبية الشعر، جامدة الملامح، في الثالثة عشر من عمرها، كانت تمسك ب(قصافة) الأظافر تقلم أظافر (أميرة) التي سحبت يدها فجأة في خوف.

قالت الفتاة:

- "اديني إيدك هقصلك ضوافرك يا (رزان)"

- "أنا اسمي (أميرة)"

- "لأ من النهارة إنتي اسمك (رزان)"

- "ليه؟ هو في إيه؟ فين ماما وبابا"

- "معرفش، أنا بس دوري أقصلك ضوافرك وأنضفك"

باتت الفتاة تقص أظافر أيدي وأقدام (أميرة) التي أصبحت (رزان) بين لحظة وضحاها، حين انفتح الباب وجاءت (بدوية)، تلك المرأة الضخمة البنية، سمراء الوجه، غليظة الملامح بشعرها الخشن وجلابية البيت البيضاء ذات النقط السوداء، هلعت منها الفتاة وانكمشت في سريرها إلى الوراء، توجهت بدوية إلى السرير، ثم حملتها في بطء لم تبد له الصغيرة الكثير من المقاومة، أدخلتها الحمام.. فتحت ستارة (البانيو) [حوض الاستحمام] ووضعتها في البانيو ثم أوقفتها على قدميها، بدأت تنزع عنها ثيابها، شرعت الصغيرة في البكاء، فقالت (بدوية):

- "مش عايزة صوت.."

صبت على رأسها بعض الشامبو وأمسكت ليفة ضخمة، وضعت صابونًا فيها وبدأت تحك ظهرها بقوة، تألمت الصغيرة برقة جلدها ونعومة بشرتها... صرخت في (بدوية):

- "بيوجع أوي.."

ـ "معلش استحملي! لازم تنضفي كويس، ده أصول الشغل"

أخذت (أميرة) تبكي.. بكاء طفلة في السادسة..

جلست على الأرض في غرفتها ترتدي ملابس بيضاء قصيرة، حاولت طفلتان تكبرانها سنًا ببضع سنوات أن يتحدثن إليها إلا أنها كانت في انهيار كامل... ترتجف وتبكي وتنظر لمن حولها كأن الكل سباع تريد أن تأكلها...

خرجت الفتيات جميعًا من الغرف حين صفق (مصيلحي) تصفيقات عالية بالقرب من الغرف، كانت (أميرة) تجلس بشعرها المبلل، لم تكن تتحرك مع الفتيات إلى الخارج حين اقتربت منها الفتاة ذات الشعر الذهبي التي قلمت أظافرها:

ـ "أنا (وردة)"

ـ "وأنا (أميرة).."

"قلت لك إنت (رزان)، حاولي تنسي الاسم ده! فاهماني؟"

أومأت (أميرة) إيجابًا..

ـ "تعالي معايا، واسمعي كلامي. أنا معاكي متخافيش"

*****

افترشت طبلية كبيرة تربع حولها البنات الصغيرات في أعمارهن المختلفة. كان من الواضح أنهن تعودن المكان وألفن الطعام، كان من الواضح أن (أميرة) هي أصغرهن سنًا وأنها أحدثهن في البيت، وضع أمامهن بعض أطباق الفول المدمس والبيض المسلوق والخبز البلدي، بدأن في تناول الطعام بنهم، إلا (أميرة) التي لم تتحرك ناحيته، ناولتها (وردة) رغيفًا من الخبز وضعت فيه بيضة مسلوقة.

- "كلي يا (رزان).."

- "مش جعانة"

- "لازم تاكلي، محدش هنا هيهتم يأكلك لو ماكلتيش، الفطار بيتشال ومفيش أكل لحد الغداء، أحطلك شوية فول معاهم؟"

هزت رأسًا نفيًا، فتابعت (وردة):

- "طيب كلي اللي في إيدك"

مرت أيام تباطأت فيها حدة الأمر على الفتاة الصغيرة، بدأت تنخرط مع الأطفال تدريجيًا، تذكر أهلها أحيانًا وتنسى أحيانًا أخرى.. نسيت ذكر اسمها حتى لم تعد تتعجب من اسم (رزان).

كانت (سلوى) قد نصبت (وردة) تحت إشراف (مصيلحي) لتعليمها بعض المهارات الخاصة بتغيير ملاءة سريرها وثني الملابس، أما عدد الفتيات في البيت فيقترب من خمسة وعشرين فتاة، يخضعن لقواعد صارمة في المبيت والاستيقاظ، تأتي سيارات إلى الڤيلا وتذهب سيارات أخرى، لم تدرك الصغيرة أي شيء من هذا، بدأت ذاكرة الماضي تتلاشى شيئًا فشيئًا كأي طفلة نشأت مع أسرة جديدة.

مرت خمسة أعوام، نسيت فيه أنها يومًا كانت تسمى (أميرة)، كانت قد انخرطت بالكامل في مجتمعها الجديد إلا من بعض الذكريات الخفيفة الباقية، تذكر رقعة شطرنج ذهبية اللون لا تدري أين رأتها ولا كيف، رأت مرة في منامها أنها تطيح بكل أحجارها السوداء.

أما الشيء الآخر التي كانت تذكره فهو وشم على ساق رجل فلاح، يشبه السيف، لا تذكر تفاصيله ولا صاحبه ولا هيئته.. دون ذلك لم تعد تذكر شيئًا، فقط تعرف من حولها.. (وردة)، وأسماء صديقاتها وطنط (سلوى)

التي لم تستسغ يومًا مناداتها بطنط، وعمو (مصيلحي) ووجوه بعض الحراس الذين يرصدون حركة الفتيات داخل الڤيلا برئيسهم الملقب بـ(نمر)، ذلك الرجل الأصلع الرأس، ضخم البنية الذي لم يشك أحد يومًا في سر تسميته بـ(نمر)، لا تفوته حركة صغيرة ولا كبيرة في الڤيلا إلا رصدها.

حينما بلغت قرابة الثانية عشر من عمرها كانت تقريبًا قد تعلمت كل الأعمال المنزلية من التنظيف وترتيب الملابس وإعداد سفرة الطعام، ما عدا أي شيء يتعلق بالطبخ التي كانت لازالت صغيرة على استيعاب أسراره.

كان من الملحوظ جدًا جمالها البارع.. طفلة ليست كأي طفلة، يعتقد الناظر إليها أنها ستكون يومًا ملكة جمال العالم.

صارحتها (سلوى) من قريب عن أنها ستعمل في بيوت ناس أغنياء، وأنها يجب عليها أن تتعاون، حذرتها من المشاكل والمشاحنات، أما لو حاولت الهرب في أي يوم فأشارت إليها إشارة بالسكينة على رقبتها.. فقط لمجرد التفكير في أمر كهذا.

كانت قسوة قلب (سلوى) واضحة، تتحدث عنها فتيات الفيلا، لا ترحم أخطاءهم ولا تتوارى عن عقابهم لأتفه الأسباب، قامت يومًا بتجويع (وردة) يومًا كاملًا لأنها اعترضت على أمر لم تستسغه، أما الفتاة التي سربت إلى (وردة) بعض الطعام أثناء ذلك العقاب فقد عوقبت بالحبس في غرفتها ثلاثة أيام إلا من بعض الخبز وقليل من الماء.

ـ "هتخرجي تشتغلي عند ناس كويسين، راجل لبناني ومراته، اخترتك علشان ماعندهمش عيال وإنتي لسة مش جاهزة تقعدي بأطفال، إياك تزعليهم، دول بيدفعوا فلوس كتيرة أوي، لو حصل حاجة مش هعرف أصرف على أكلك ولا على شربك، تشتغلي جامد.. مفهوم؟"

وصلت (رزان) مع (مصيلحي) إلى باب فيلا في المهندسين حيث فتح رجل أبيض البشرة، صفف شعره بعناية فائقة أخفت بعض صلع رأسه، يلبس نظارة للقراءة ويلبس (شورتًا) طويلًا وقميصًا رياضيًا أحمر، نظر نظرة مبتسمة أخفت شيئًا في نفسه إلى الفتاة و(مصيلحي).

ـ "تعالوا اتفضلوا، هادي معقول بتعرف تخدم في البيت!؟"

ـ "هتعجبك أوي يا سعادة البيه، بنت شغيلة وساكتة ومش بتاعة مشاكل، ومش هو ده السن اللي إنت والمدام عايزينه، ده لسة مقفلة ١٢ سنة، يعني طاقة وحيوية ونشاط، لاتقولي أثيوبيات ولا صوماليات.."

ـ "واو! هادي من وين چبتوها!؟"

ـ "لأ! لأ! إحنا بنديك حاجات خصوصي، أهاليهم في البلد فقراء وبنبعتلهم الفلوس كلها كل شهر، إحنا بس وسيط خير"

ـ "ليش؟ مفكرني أهبل؟ طبعًا بتاخدوا المصاري، وبتعطوا أهلها الفتات"

ـ "ليه بس كده يا سعادة البيه!؟"

ـ "طيب كم راح تاخدو فيها بالشهر؟"

ـ "ألف دولار"

ـ "يعني ٥ آلاف جنيه مصري؟ الأثيوبية الخبرة بـ٣ آلاف جنيه!"

"أديك قلتها.. أثيوبية.. وبعدين خلاص يا باشا لو مش عايز أنا ممكن أجيبلك أثيوبية من أي شركة"

"لا.. لا خلص، البلدي دايمًا خيره فيه".. قالها ونظر إلى (أميرة) بابتسامة أخافتها.

مرت أيام كانت صعبة في حياة الطفلة الصغيرة التي كان أول خروج لها منذ سنوات لم ترَ فيها الحياة خارج الفيلا، بدا كأنها ترى عالمًا غير العالم وأناسًا غير بني آدم، عاملتها زوجة الرجل (هبة) بلطف بالغ، أشفقت على سنها وكانت تعطيها المزيد من الطعام، وحتى الألعاب الصغيرة التي فرحت لها كطفلة لم تشهد طفولتها بعد، أعدت لها غرفة صغيرة، قاربت الطفلة الستة أشهر تعمل وتكدح في البيت.

كانت نظرات (موسى) لا تفارقها، حتى أمام زوجته التي لاحظت، إلا أنها نفت الأفكار الخبيثة عن مخيلتها، واثقة بزوجها العاقل.. أو التي كانت تظن.

وفي يوم نام فيه الجميع، تسرب (موسى) إلى غرفة (رزان) كما يتسرب الجراد من بين طيات نبات الذرة، فتح الباب ببطء بعد أن ترك (هبة) مستغرقة في نومها في الأعلى، اقترب من الفتاة يتفحصها بعينين ثاقبتين خاصة جلباب البيت الذي رفع عنها ليكون قريبا من خصرها، برقت عيناه وسال لعابه كذئب جائع ملك فريسته، وضع يده عى قدمها ثم صعد إلى أعلى الركبة في اللحظة التي استيقظت فيها (رزان) في هلع:

ـ "(موسى) بيه، في حاجة!!؟"

أمسك خاتمًا من ذهب عليه فص أزرق:

ـ "جبتلك ده، عارفه ده إيه؟"

ـ "مش فاهمة حاجة.."

ـ "ده خاتم دهب، هدية ليكي"

ـ "دهب إيه يا بيه!؟"

- "أيوه دهب، لما تمشي من هنا تبقي تبيعيه وتشتري كل اللي نفسك فيه، خديه، خبيه في درجك أو في عروستك، وماتقوليش لطنط (هبة) إني جبتلك حاجة، ممكن تزعل علشان هي كمان ممكن تكون عاوزة زيه"

دفع إليها به..

- "خديه.. متخافيش"

- "بس ليه الدهب ده يا بيه؟"

- "علشان إنتي جميلة أوي"

ملس على شعرها، حين بعدت يده بخوف.

- "إيه؟ إنتي خايفة؟"

- "يا بيه لأ.. ابعد عني.. أنا عاوزة عم (مصيلحي)"

- "عم (مصيلحي) مش معانا دلوقتي، إنتي عندي هنا في البيت، ها! هتعملي اللي أقول لك عليه.. مش كده؟ بصي أنا عاوز حاجة صغيرة قوي، خدمة راح تعمليها لي.."

بدأ يفك ربطة بنطاله حين صرخت (رزان) صرخة دوت في الڤيلا قام وراءها (موسى) بصفعها صفعة قوية على خدها بعد أن تفاجأ برد فعلها الذي لم يتوقعه.

- "يا بنت الـ***ب"

وقف ونظر إليها، برهة قبل أن تفتح (هبة) الباب:

- "شو فيه!!؟"

"اتفضلي الأشكال هادي، بعد ما أعطيناها الأمان تيجي وتسرق أغراضنا"

(هبة): "كيف هايدا الكلام!!؟"

"شوفتها امبارح دخلت أوضتك فجأة، وطلعت بتتفرج حواليها زي اللي عاملة عملة، قلت أكيد ماخده شي، قلت أنزل أتأكد في أوضتها بعد ما تنام، تتخيلي شو لقيت؟"

نظرت (هبة) إلى (أميرة) محاولة فهم ما يحدث، ثم حولت نظرها إلى (موسى) الذي تابع:

- "لقيت الخاتم الذهبي هادا مخبياه في لعبتها، فاكرة إن إحنا ما راح نفتش وراها، بتعرفي أي خاتم؟"

نظرت دون إجابة:

- "الخاتم اللي جيبتو ليك في عيد زواجنا، اللي فيه فص أزرق، شايفة البلاوي اللي إجت عنا!؟"

نظرت (هبة) إلى (رزان):

- "صحيح الكلام ده يا (رزان)!!؟"

- "لا والله، أنا..."

قاطعها (موسى) موجهًا حديثه إلى (هبة):

- "إنتي لسة هتسأليها!!؟ البنت هادي ما فيها تقعد لحظة في البيت، أنا هحكي مع (مصيلحي) حالًا"

سار بالفتاة بينما تلاحقه نظرات متشككة من (هبة)، لابد أن هناك شيئًا آخر.. قصة أخرى، أو حقيقة غير الحقيقة.

نزل معها إلى السيارة:

- "إنتي فاكرة نفسك راح تغلبيني!؟ أنا غلطان إني كنت راح أنغنغك أو كيف بتقولوها بالمصري!؟"

رفع السماعة، وطلب رقم (مصيلحي) لينتهي كابوسها الثاني..

*****

الفصل الثالث

"الوهم نصف الداء..

والاطمئنان نصف الدواء...

والصبر بداية الشفاء..."

ابن سينا

في ڤيلا الهرم، صرخت (سلوى):

ـ "مش قلتلك مش عايزين مشاكل!؟ إيدك تتمد ليه على حاجة الناس!!؟ طيب مالكيش عندي لا أكل ولا شرب"

ـ "أنا مسرقتش حاجة يا طنط"

ـ "بلا طنط بلا زفت!"

ـ "والله ما سرقت"

ـ "أمال بيفتروا عليكي!!؟"

ـ "الراجل حاول يعمل معايا حاجات مش كويسة، وأنا صوَّتّ وهو إداني الخاتم وقال لي خبيه"

ـ "إنتي عارفة خطورة الكلام اللي بتقوليه ده!؟ لو ماطلعتش دي الحقيقة أنا هعلقك في السقف"

ـ "والله يا طنط هي ده الحقيقة"

ـ "وماقلتيش كده ليه لمراته هناك؟"

ـ "أنا كنت خايفة"

ـ "هي سألتك؟"

ـ "أيوة، بس هو مادانيش فرصة"

تلجلجت، ثم تابعت:

ـ "وحضرتك قلتي مش عاوزة مشاكل"

ـ "اممم.. طيب خدها يا (مصيلحي)"

أخذها إلى غرفتها، فرفعت (سلوى) عينها في اللاشيء وأخذت تفكر بعمق..

قررت بعد فترة وجيزة إرسالها إلى أسرة أخرى.. رجل أعمال وامرأته غير عاملة.

دخلت (رزان) البيت وشاهدت السيدة (فايدة) صاحبة البيت جمالها الفتاك حتى أساءت معاملتها برغم صغر سن الفتاة، تعمدت إهانتها وانتهى الأمر بطردها من البيت.. دون أدنى ذنب اقترفته سوى ما وهبها الله من خلقة خلابة.

بعد عدة شهور، بدأت (سلوى) تحس بأن (رزان) قد يصعب استمرارها في هذا النوع من العمل، فمشاكلها أكبر من نفعها، بات من الواضح أنها لن تستمر في أي بيت عدة شهور.. إن أتمتهن!!

مرت سنتان ونصف كانت قد اقتربت فيه الفتاة من خط السادسة عشر، ازداد جمالها حسنًا، ونضج قوامها، أثارت غيرة في نفس كثير من بنات الفيلا، لم تخرج خلال هذه الفترة للخدمة في البيوت، لم تعرف إن كان ما ينتظرها أفضل أم أسوأ.. كانت تسير بلا إرادة تتوقع ما قد تخبيء لها الأيام.

(سلوى) متحدثة في هاتفها الخلوي، وبجانب ذراعها الأيمن (مصيلحي):

- "إزيك يا حاج؟"

- "............"

- "أيوة تعبتني.."

- "..........."

- "لا يا حج (زكريا)، مش جايبة همها، بترجع من أي بيت بتشتغل فيه، إيبه، كده يعني، ممكن بس ده محتاجة تدريب وشغل مكانش في الخطة، إحنا قلنا ده في الخدمة لأن زي مانت عارف عندنا نقص في عدد البنات بتوع الخدمة والنضافة.."

- "..........."

- "يعني أنت شايف كدة؟"

نظرت حولها، ثم أتبعت:

- "أنا خايفة تقطّع على البنات التانيين.."

استمعت إليه بتركيز..

"..............."

"حاضر يا حاج تمام هيتنفذ.."

أغلقت الهاتف، ثم نظرت إلى (مصيلحي):

- "مش هنودي (أميرة) بيوت خلاص.. الخطة اتغيرت"

- "أمال هتوديها فين يا ست هانم؟ اوعي تقوليلي مع (لبنى) و(دلال) و(وردة)!"

- "ليه يعني لأ يا (مصيلحي)!؟"

- "أولا: دي لسة ١٦ سنة، أقل واحدة معانا في العشرينيات، ماعرفش لسة ناضجة ولا لأ"

- "إنت شايف إيه؟ ناضجة ولا مش ناضجة؟"

- "ماشي، شكلها كبير وجسمها مزبوط، بس عقلها يستوعب ده!؟"

- "مش محتاجة عقلها في حاجة"

- "أنا قلتلك رأيي يا ست هانم، أنا بقالي معاكم هنا سنين عمرنا ما كسرنا قاعدة العشرين في البنات بتوع الشغلانة"

- "على العموم دي طلبات الحاج (زكريا) وانت عارف طلباته..."

قالت، ونظرت إليه، فأجاب كمن فطم على قول معين:

ـ "أوامر"

ـ "طيب يللا بقه نفذ الأوامر يا حدق"

ـ "تؤمريني يا ست (سلوى)"

ـ "حضرها ونادي (حازم) و(بدوية)، خليهم يبدؤوا في التدريب فورًا"

حياها ثانيًا ظهره، ثم انصرف..

*****

"أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس لتكون شخصا آخر"

وليام شكسبير

*****

بعد ستة أسابيع:

في فيلا بالدقي، اجتمع عدد من الرجال والنساء من جنسيات مختلفة، بعضهم من دول الخليج بثيابهم البيضاء والغطرة والعقال وبعضهم من القارة الإفريقية ببشرتهم السمراء، أنغام الموسيقى الشرقية تعلو من جهاز له سماعات ضخمة، تشتعل بأصوات صاخبة، وضع أمام الضيوف زجاجات الخمر البنية وزجاجات البيرة الخضراء، وبعض المزّة (بفتح الميم) من الفول السوداني والفستق والكاجو، ترقص في وسطهم فتاة زينت بجميع أقلام الميكياج كأنها عروس أعدت لليلة الدخلة، تلبس بدلة الرقص الشرقي التي

شفت نصف جسمها، تتحرك على أنغام الموسيقى تحركات بدا فيها أنها لا تستسيغ ما تفعل، لم تكن الفتاة إلا (رزان) التي وجدت نفسها مجبرة على ما هي فيه، تلتهمها نظرات الرجال، وتتبادلها الأعين، لم تستطع أن تخفي اضطرابها، لم يسبق لها أن رقصت إلا أثناء التدريب الذي أعدت له في البيت مع الفتيات، تمنت لو أنها كانت في مكان آخر، أو عالم مختلف فيه أشياء طبيعية وحياة مملة، ظلت تنحني في رقصاتها متذكرة أنها لو أخفقت فإن عقابا ينتظرها.

انحنى رجل خليجي على (سلوى) التي كانت تجلس على كرسي كبير ككراسي الصالونات القديمة:

ـ "مين هذه الحلوة؟"

ـ "ده وجه جديد، رقصها جامد مش كدة؟"

رفع حاجبيه:

ـ "هي جامدة بعقل!"

ـ "تسلم يا أبو الكرم"

ـ "دي هتبقى ليلتها غالية مش كده؟" باغتها بسؤاله.

ارتبكت (سلوى)؛ لم يكن بالحسبان هذا السؤال، كانت قد اتفقت مع الحاج (زكريا) أن تعمل (رزان) في الرقص فقط، لم تعتقد أن الأمور تفلت بهذه السرعة وأن أحدًا قد يطلبها في أول ليلة، كانت تدرك أنها ابنة ستة عشر عامًا، ولم يكن من عادتهم أن يشرعوا مع الفتيات في هذا العمل قبل العشرين من أعمارهن.

ـ "مافكرتش في الموضوع ده، ده لسه ماتمتش ستاشر سنة"

ـ "هو في أحلى من ستاشر سنة!؟"

قالها بمغازلة، قبل أن يردف بطريقة رجل الأعمال:

ـ "وأنا أقدَّر الصغيرة قبل الكبيرة، عايزة فيها كام!؟"

ـ "استنى بس عليا، إنت فاجئتني ومكانش في الحسبان إنها تعمل حاجة تانية دلوقتي، طيب بقول لك إيه ما تاخد حد من البنات الموجودين دول.. ده (وردة) بنت شقية وتعجبك"

ـ "لا أنا عايز البنوتة دي، اسمها إيه؟"

ـ "(رزان)"

أخرج دفتر شيكاته:

ـ "حطي الرقم اللي إنتي عايزاه"

ـ "طيب بس هطلب منك حاجة.. سيبهالي كام يوم الأول أجهزها وأفهمها الليلة"

ضحك حتى ظهرت كل أسنانه:

ـ "خلاص نصبر لغاية ما اللحم يستوي.. بس إنتي عارفاني.. مش بحب أصبر كتير"

نظرت (سلوى) إلى (رزان) التي كانت ترقص في وسط الصالة بلا توقف كالرجل الآلي، تابعتها بنظراتها وأغلقت عينيها ثم تنهدت...

****

"أيوة يا حاج (زكريا)"

"..............."

"إنت شايف كده؟"

".............."

"خلاص على العموم الراجل مستعد يدفع مبلغ محترم"

*****

تراصت الفتيات أمام (مصيلحي) الذي أخذ يوزع بعض العطور والهدايا، وسلة صغيرة بها بعض المأكولات تتسلمها كل فتاة. أخذ مصيلحي يقف بجانب كل فتاة على حدة ليأخذ معها صورًا مختلفة في مواقع متناثرة في الفيلا. تساءلت (رزان) في نفسها عن أسباب هذه الصور إلا أن عقلها لم يجد إجابات مقنعة.

تراص الجميع قبل أن يتكلم رجل يلبس جلبابًا صعيديًا زيتي اللون وعمامة بيضاء، ملامحه هي القسوة بعينها، ضخم الأنف، عيناه عسليتان حادتان، لم يكن ذلك سوى الحاج (زكريا)، الشريك الشيطاني لـ(سلوى)، تعاهدا معًا على مبدأ أقراه لنفبسهما: (الغاية تبرر الوسيلة)... وأنه لا عائق في سبيل المال مهما كان، الأخلاق فقط هي المال، والفضيلة هي جمع الثروة.. كان هو الشحص الموفِّر للحماية التامة لهذا المكان، إضافة إلى توفير الرأي والقرار ومتابعة سير الأمور... العقل الشيطاني المدبر إلا أنه لم يكن يكثر الظهور في المكان لرفعة منصبه -كما يزعم- في مجلس الشعب (فئة عمال)، والذي اعتبره عملًا يستوجب التخفي بعيدًا عن نشاطه الخفي.

أما عمله المعروف فإنه تاجر كبير في بيع الخيش، له ثقل في السوق ولديه مصنع خاص به في مدينة حلوان، هرب يومًا من الصعيد من مدينة نجع حمادي بعد أن قتل (أدهم النجعاوي) في سلسة ثأر لا تنتهي، عاش بعدها حياته في القاهرة بين يدي حراس من نوع خاص، دفع لهم ما يسيل لعابهم من المال ليتكفلوا بحمايته:

ـ "عاوزين نشاط في الشغل، العالم حوالينا صعب والمتطلبات كثيرة، اللي شغالين في البيوت بقوا مش جايبين همهم، اتعلموا رعاية الأطفال وحاجات تانية لأننا هنزود في الأسعار، أي مشكلة هتحصل في أي بيت يعني مشكلة للبت اللي عملت المشكلة، حتى ولو كانت مش غلطانة. البنات بتوع الزباين عاوزين رضا الزباين مش أكتر، النظافة مهمة والكشف الدوري إجباري، ومعاكم الدكتور هنا كل يوم، يعني مالكومش حجة، أي حاجة الزبون هيدهالكم هتجبوها عندي هنا، مافيش واحدة تخبي حاجة، أنا بوزع كل حاجة بالعدل وبما يرضي الله، انتم عارفين إني بتقي ربنا في كل حاجة في شغلي"

نظر إلى (رزان)، أبهره جمالها كمن لم يلحظها من قبل:

ـ "مش دي البت اللي بترقص؟"

أجابته (سلوى):

ـ "أيوة يا حج، والطلب عليها بدأ يزيد"

ـ "اشتغلت مع الزباين؟"

ـ "لأ، لسة"

ـ "لأ ليه!؟ دي تجيب شغل زي الفل"

أردف:

ـ "حضريها للشغل، زيها زي بقية البنات"

ـ "حاضر، اللي تشوفه"

نظرت (رزان) إليه ثم إلى (سلوى) بعد أن أدركت ما كانا يرميان إليه، إلا أنها لا تستطيع أن تنبس ببنت شفة.

صاح (مصيلحي):

"يلا يا بنات، روحوا على الأوض"

بينما وضع زكريا يديه في جيوب جلبابه وكرشه يتقدمه، فلما فرغت الصالة قال:

ـ "البت دي ركزي عليها، دي تجيب ثروة، هي دي كانت مجايب مين؟"

(سلوى):

ـ "(أبو العنين) بتاع..."

نظرت حولها، وقالت في خفوت:

ـ "الإسماعيلية"

ـ "الراجل ده ذوقه علي في الفترة الأخيرة"

ظل (مصيلحي) يراقبه دون أن يتكلم فسأله (زكريا):

ـ "كشفها الصحي كويس؟"

ـ "تمام يا حج، مافيش أي مشاكل صحية، ميت فل"

ـ "اندهلي البت.."

ـ "قصدك البت (رزان)؟"

ـ "أمال البت (عباس)!؟ مخك هيفضل تخين!؟"

غاب بعدها لثانية ثم أحضرها، وقفت أمام (زكريا) ترتعد لا تتوقع ما ينتظرها، فقد بدا لها أن ما مرت به ليس هو الأسوأ.

ـ "اقعدي يا (رزان)"

ترددت، ثم جلست على أريكة قريبة، فجلس أمامها:

ـ "أنا هديلك كام يوم تحضري نفسك لشغلانة تانية جنب الرقص، فيها متعة وفلوس، وتعامل مع ناس أكابر، لو بسطتيهم هيرفعوكي لفوق، ولو زعلتيهم زعلهم وحش"

قام من الأريكة مغادرًا، قبل أن يتوقف:

ـ "إحنا هنا بنسمع الكلام وبس.. مش كده؟"

نظرت إليه دون أن تجيب بأي كلمة، كان هول الموقف بالنسبة لها أكثر مما تحتمل، بدأت تدرك طبيعة عمل بعض الفتيات اللاتي يضعن المكياج يوميًا، كانت تخاف أن تسألهم سابقًا، لم تكن تنخرط كثيرًا مع البنات باستثناء ثلاثة من أصدقائها، من بينهم (وردة)، فهمت الآن لماذا تعود (وردة) في وقت متأخر كل ليلة، وفسرت سبب بكائها أحيانًا بدون سبب.

ذهبت إلى غرفتها حيث وجدت (وردة).

ـ "إنتي كنت بتشتغلي مع الزباين كل ده وأنا مش عارفة؟"

ـ "إحنا هنا بننفذ الأوامر يا (رزان)"

"طيب ليه ماحاولتيش ترفضي، تهربي حتى وإنتي برة عند زبون مثلًا"

"حاولت مرة أهرب"

"طيب وإيه اللي حصل!؟"

خلعت (وردة) حذاء كان في رجلها اليمنى، فظهرت أصابعها وقد بتر الإصبع الأخير، ثم نظرت إلى (رزان):

"ده اللي حصل"

"ده إيه ده!!؟ بجد!!؟"

"هربت من زبون في المهندسين، كان سادي وضربني وبهدلني، جريت بعيد، لقيت (مصيلحي) مسكني، الناس دول بيراقبونا زي مراقبة الجواسيس، مافيش مفر منهم، ارضي بحياتك معاهم يمكن تاخدي مزايا زيادة، أول ما وصلت البيت الحج (زكريا) حب يعاقبني، قطع صباع رجلي الأخير وقال لي المرة ده علامة مش واضحة، وهددني إن لو حاولت أهرب مرة تانية هيخلي العلامة في وشي"

بكت، فاحتضنتها (رزان)، وسالت دموعهما.

*****

افتتح اللاعب الأسود فخًا افتتاحيًا بتحريك الجندي الأسود الذي أمام الملك في خطوتين متتاليتين، فما كان من اللاعب الأبيض إلا أن أوقف حركته بتحرك الجندي الأبيض المقابل له حركتان مماثلتان، وهنا تقدم اللاعب الأسود بتحريك حصانه ليكون في ظهر جنده فحرك اللاعب الأبيض الحصان الآخر في الناحية الأخرى حركة مماثلة، الفيل الأسود يتقدم ليواجه الحصان الأبيض بمجاورة جنديه الأسود يفصل بينهما مربع واحد.

*****

انطلقت سيارة بيضاء تحمل ثلاث فتيات يجلسن بالخلف.. (رزان) و(وردة) وصديقتهما (فرح)، يلبسن فساتين تبدو عادية لمن يراها حتى لا تلفت نظر الشرطة إذا ما استوقفتهن، أما (مصيلحي) فكان يجلس بجوار السائق يتابع الطريق في صمت. كانت (رزان) تتابع الطريق وتنظر إلى كل شيء حولها

كأنها تبحث عن سبيلها إلى النجاة، ودت لو كلمتها الشمس وأخذ بيدها الطريق، همست (رزان):

- "(وردة).. أنا خايفة، أنا عايزة أموت، بجد"

نظرت إليها (وردة):

- "امسكي نفسك، هتتعودي"

أشاحت بوجهها، تبتلع لعابها.. ثم تابعت النظر إلى الطريق..

وصلت السيارة إلى وحدة سكنية ضمت مجموعة فلل مستقلة، سارت الفتيات داخل الڤيلا خلف (مصيلحي) تتقدمهم (وردة)، كان في استقبالهم بنت في أواخر الثلاثينات ترتدي بنطلون جينز وبلوزة حمراء، يبدو واضحًا أنها سكرتيرة لأحد الرجال.

أخذت السيدة بعض الأوراق من (مصيلحي) ونظرت إلى الفتيات، كانت تحاليل حديثة تفيد بخلو الفتيات من الأمراض، سمحت لهن بالتقدم، بينما أبقت (مصيلحي) في الصالون، جلس يدخن سيجارة، ينظر إلى زخرف الڤيلا الباهظ الثمن، دخلت الفتيات إلى إحدى الغرف حيث قمن بتبديل ملابسهن كما لديهن من تعليمات، ذهبن إلى غرفة واسعة قليلة الإضاءة، ينتصفها سرير أبيض كبير، يجلس في وسطه رجل ذو لحية قصيرة، يظهر كرشه من تحت البيجامة التي يرتديها، وشعره المتفرق الأسود، وتلك السلسلة الذهبية التي طوقت رقبته، نظرت إليه سكرتيرته.

- "أي واحدة؟"

ارتعدت فرائس (رزان) حين نظر إليها، كانت أجملهن بلا منازع، نظر إليها وكاد أن يبتسم، لمحت (وردة) شعور (رزان) في عينيها، نظرت فجأة (وردة) إلى الرجل، ابتسمت ابتسامة وضعت فيها كل جاذبيتها، وأخرجت جزءًا من

لسانها في محاولة لإغراء الرجل الذي ما لبث أن أشار إلى (وردة) بعد أن حركت فيه مشاعر الإثارة، أشار لها:

"تعالي"

أشارت (وردة) إلى نفسها:

ـ "أنا؟"

سحبت السكرتيرة الفتاتين الباقيتين على الفور، وعادت بهما إلى (مصيلحي) الذي كان قد ملأ دخان سيجارته المكان.

ـ "معقولة؟ خد (وردة)!؟ أنا افتكرته هياخد (رزان)"

نظر إلى الفتاتين، كان يحاول تفسير شكه..

توارت الأيام حين تكرر خروج (رزان) للمرة الثانية، هذه المرة كانت لوحدها، لا مفر من أن تقابل مصيرها وأن تنخرط مع الزبون، أوصلها (مصيلحي) إلى شقة رجل في منطقة الزمالك، رجل نحيف أصلع الرأس، أعطى بقشيشًا ضخمًا لـ(مصيلحي)، وطلب منه الانتظار في الكوفي شوب الذي في آخر الشارع، نزل (مصيلحي) وانتظر تحت باب العمارة كعادته، لم يكن ليترك فرصة للخطأ أو لهرب إحدى الفتيات، دخلت (رزان) في خوف، أغلق الرجل الباب، مرت ثوان ينظر اليها إلى أن تكلم:

"خمس دقائق وأجيلك"

دخل الحمام وأخرج من جيبة حبة دواء زرقاء وهو يقول لنفسه:

ـ "إيه الغباء ده!؟ مش كنت تاخدها قبليها بساعة!؟ ربنا يستر ومنتفضحش!.... لا أتفضح إزاي ده البنت جامدة ومتتفوتش!"

خرج من الحمام يرتدي بوكسر أزرق.. بدأ يغني: "زيديني عشقًا زيديني يا أحلى نوبات جنوني"

لم يجدها أمامه في الغرفة، ظن أنها في المطبخ أو في الحمام الآخر، بحث عنها وهو يناديها:

"(رزان)، إنتي فين؟"

لم يتلق إجابة فازدادت سرعة تحركه في الشقة يفتح جميع الأبواب، تأكد أنها لم تعد موجودة، استشاط غضبًا واختلف لونه، أخذ يفكر:

- "دي لعبة من (مصيلحي) بعد ما خد الفلوس ولا البنت بتلعب مع أسيادها، ولا تكون حرامية وسرقت حاجة؟"

عاد يركض في الشقة يتفقد دولابه ومحفظته، أخرج هاتفه ثم طلب (مصيلحي):

- "انتو هتعملوا الحركات ده عليا؟ أنا عايز فلوسي حالًا!"

- "فيه إيه بس يا باشا!؟ إيه اللي حصل!؟"

- "يعني مش عارف!؟ البنت مش موجودة، خرجت من الحمام ملقيتهاش"

- "إيه!!؟ مش موجودة إزاي!!؟"

أغلق (مصيلحي) التليفون وانطلق كالمجنون داخل العمارة، يتفقد السلاسم والأسانسير، وقف يفكر... انطلق إلى باب العمارة ينظر في كل مكان، قال أحد الشباب:

- "بتدور على حاجة؟"

- "بنت كده.."

- "كانت بتجري بسرعة أوي؟"

ـ "أيوة فين؟"

ـ "راحت كده من دقيقة بالضبط، أشار إلى ناحية من الشارع"

انطلق كالرصاصة إلى الاتجاه الذي أشار إليه الشاب...

نظر يمينًا ويسارًا، لم يجد لها أثرًا..

ظل يعبر بأقصى سرعته كالمجنون.. توقف للحظة وحك ذقنه.

ـ "راحت فين!!؟"

انطلقت تركض تاركة وراءها الباب مفتوحًا، لا تدري أين ستذهب بها الأقدار في رحلة الخروج من أرض الواقع، تسابق قدماها الطريق وتتحرك يداها بلهفة، مرتدية غطاء للرأس لم تحكم ربطته كمن خرجت من بيت زوجها وقد طلقها في منتصف الليل، الشوارع تزدحم بالأضواء التي تسللت إلى جوفها عاكسة ملامح الخوف والفزع.. تحمل فوق رأسها أفكارًا قاربت أفكار عجوز في الستين، تكاد أصوات السيارات تخترق أذنيها ويرجف لها قلبها، تنظر في اللاشيء وتبحث في الفراغ، تتسابق مقلتا عينيها في إرخاء الدموع التي لا تكاد تخرج حتى تقبض عليها جفونها.. فزع.. وهلع.. وشرود.. وتيه.. كمن ضل طريقه في صحراء جرداء قفر، لا كلأ فيها ولا ماء، أرخت دمعة صغيرة زادت براءتها روعة، وأخفت حزنًا ملأ قلبها، تمسك بغطاء رأسها كمن تجذبه الرياح، تصرخ بما حواه الفؤاد وأدركه العقل، تركل أحجار الطريق بقدم بريئة وحذاء وردي كحذاء العيد.. يتحرك شعرها من تحت الغطاء كمياه شلال انهالت من صخرة عالية في وسط حديقة أزهرت بالنقاء وأوردت بالبراءة... أحلام تتلاشى، وذكريات تُستعاد، تتداعى إلى رأسها فجأة دون أن تفتح لها بابًا أو نافذة، لا تكاد تصدق ما وصلت إليه ولا حقيقة ما ترى... إن اغتيلت أحلامها فمن يرمم لها شق جراحها، ومن

يلحم لها رأب صدعها!؟ ستركض حتى تدمي قدميها الجراح، وتعجز القدم عن السير... ستركض متمنية ألا تقف يومًا أو تكل الأقدام أو تتعب، تختلس النظر إلى السماء، ترجو وتتمنى وتستجير بلحافها وقد أضاء فيها نورًا ظنت أنه جاء خصيصًا ليرشدها إلى الطريق، تتلألأ أضواؤها في عينين مستديرتين حالمتين أن يكونا في جسد بنت السادسة عشر، تمنت أن لو كانت طفلة تلعب مع أترابها بالعروسة ذات الشعر المجعد، أو ترسم وردة بالطين والصلصال، أو تزور قريبًا أو تحتضن عمًا أو تبوح لصديق.. تمنت لو أن شيئًا لم يكن، وأن لو كانت نائمة في سريرها تلعب بدميتها ذات العيون الزرقاء، تلتحف معها سريرًا واحدًا وتغمض عينيها في سلام بعد تترك نورًا صغيرًا يضيء غرفتها.

تجاهلت نظرات المتطفلين وفضول السائلين، تنحني عليها الرؤوس لتعرف سر بكائها فلا يجدون إلا صمت من جف في حلقه الكلام، ووجه من شحب جلده ونضب صحنه واحترق بطنه وارتهن مبيته.

لاح لها الشرود مرة أخرى فسمعت ذلك الصوت الذي قدَّمها على صحن من فضة تعبث فيها أيدي العابثين، صوت (سلوى) الذي أخذ يرن في أذنها وهي تتساءل.. كيف يمكن للحنان أن ينقلب قسوة وقهرًا!؟ كيف يمكن للحب أن يباع في أسواق الرقيق بأبخس الأثمان!؟ كيف أُخذت قبل أن تعطى!؟ كيف استيقظت قبل أن تهنأ بالنوم!؟ كيف خانتها أيدي الحياة التي كانت من المفروض أن تحتضنها!؟ كيف فعلت هذا بعد أن ربتت على كتفها وملست على شعرها!؟ كيف قلمت أظافر طفولتها يومًا ثم تركتها تنمو بمخالب أشبه بمخالب الذئب!؟ أما آن للجراح أن تلتئم وللعقل أن ينسى!؟

مر ذلك سريعًا في مخيلتها، كانت تركض بأقصى سرعة عرفتها..

عادت إلى أرض الواقع متفادية سيارة كادت أن ترتطم بجسدها، لم تنظر خلفها لترى ما حدث، أكملت طريقها كأن ما عاق طريقها ورقة صغيرة، أو قشرة موز في بستان صغير.. نزعت تلك الأفكار بغتة عن مخيلتها؛ فالنجاة غايتها التي لا بديل عنها.

أشاحت بوجهها عن الألم واستجمعت جسدًا قد استهلك، وقوة قد خارت، في وسط تحديق المارة يتساءلون: "لماذا تبكي الفتاة!؟ أين تبسم ثغرها وبريق عينها؟؟ ولماذا استبدلتهما بتلك الدموع التي تخرج من مقلتين هزيلتين تسكنان جفنين مظلمين!؟"

أخيراً توقفت... بعد أن تلاشت فيها جدران القوة وحلقات الصمود، وبعد أن أعلنت قدماها العصيان كمن ظل يومه يدور في حلقة حول الكراسي الموسيقية، أرهقتها طلاسم التفكير ثم وقفت على رصيف صغير عند سور حديدي يحده شارع واسع.. إلى أن اختلجت شفتاها برجفة كزلزال بعد أن سمعت صوتًا خلفها.

أمسكت بالسور، وسقطت من يدها منديلها، كان ذلك صوت (مصيلحي):

ـ "(رزان)!"

ركض خلفها، وعبر الشارع في تزاحم السيارت المسرعة، لم يتدخل أحد من المارة، وصلت إلى زقاق ضيق وهو خلفها.

ظهر فجأة رجل ضخم أمسك بها، ونظر إلى (مصيلحي):

ـ "فيه إيه يا كابتن!؟"

صرخت:

ـ "الحقني! وديني البوليس!"

صرخ (مصيلحي):

ـ "اسكتي!"

ثم حول نظره إلى الرجل الضخم:

ـ "دي مراتي"

ـ "وبتجري ليه!؟"

ـ "خلافات زوجية"

ـ "لأ! أفهم الأول"

ـ "طيب يا سيدي.. لقيتها في حضن صاحبي.. ارتحت؟ أنا هوديها البوليس وهطلبها كمان في بيت للطاعة قبل ما أطلقها وأرميها للكلاب"

قال الرجل الضخم:

ـ "وإيه اللي يثبتلي إنها مراتك؟"

أخرج (مصيلحي) بطاقة هوية، وجواز سفر له وجواز سفر فيه صورة (رزان) مكتوب فيه متزوجة من (مصيلحي أحمد السيد)، ويشير إلى أنها واحد وعشرين سنة.

ـ "واحد وعشرين سنة!! مش صغيرة عليك يا كابتن!؟"

ـ "إنت هتنؤ ولا إيه!؟"

ثم لم يلبث أن أخرج بعض الصور من المحفظة التي كانت له مع (رزان) في أماكن مختلفة في الفيلا.

تذكرت (رزان) تساؤلها دومًا عن هذه الصور.

ـ "ما تصدقوش! ده بيكدب!"

نظر الرجل إلى (رزان):

ـ "لا حول ولا قوة الا بالله! تستاهلي اللي يحصل لك، جيل ما يعلم بيه إلا ربنا!"

أرادت أن تتكلم، فجذبها (مصيلحي) حيث كان السائق وصل أمامهما، دفعها إلى السيارة، وشكر الرجل الضخم الذي قال:

ـ "الله يكون في عونك يا شق"

ركبا السيارة، فصفعها (مصيلحي) على وجهها بقوة أدمت أنفها وشفتها العليا، أخذ يسبها بأبشع الألفاظ:

ـ "جنيتي على نفسك يا حلوة، أما نشوف المعلم (زكريا) هيختارلك أيتها موتة"

انهارت في البكاء دون توقف، ودفنت وجهها بين كفيها..

*****

الفصل الرابع

"الرحمة....

أعمق من الحب وأصفى وأطهر..

فيها الحب وفيها التضحية وفيها إنكار الذات..

فيها التسامح وفيها العطف وفيها العفو وفيها الكرم.

وكلنا قادرون على الحب بحكم الجبلة البشرية وقليل منا هم القادرون على الرحمة"

د/ مصطفى محمود

أصبح اللاعب الأبيض يحمي جنديه الوحيد المتقدم بحصانه، وهنا تبدأ الخدعة من الفريق الأبيض حيث يترك حماية جنديه ويتقدم بين الجندي الأسود والفيل الأسود، فيظن الفريق الأسود أن الحصان تخلى عن حماية جنديه فما كان من الحصان الأسود إلا أن ابتلع الجندي الأبيض المنفرد بدون حماية.

*****

في غرفة خصصت لمعالجة مشاكل الفتيات وعقاب الممتنعات، كانت (رزان) مقيدة خلف ظهرها برباط كرباط المحاربين القدامى، وقفت أمامها (سلوى) صفعتها صفعة قوية أتبعتها بسباب جارح، أمسك الحاج (زكريا) بيد (سلوى) ليوقفها ليتخذ دوره، اقترب من (رزان) وصفعها بدوره في صراخ منها، أمسك بسكين في يده، ثم حركه على جسمها:

- "تحيبي تستغني عن صباع إيد ولا صباع رجل؟"

ارتعدت في مكانها، فأتبع:

- "ولا أقول لك.. علامة مستديمة في الوش أحسن، أنا حذرتك وحذرتكم كلكم، مفيش عندنا فرصة تانية".. ناولته (بدوية) شوكة كانت قد وضعتها على النار حتى احمرت، أخذها وقربها من قدم (رزان) التي صرخت، هم أن يطفيء النار في جسدها قبل أن تبرق فكرة في رأسه فجأة.. توقف، ثم أزاح الشوكة.. نظر حوله قائلًا لـ(مصيلحي):

- "أنا هعرف إزاي أخليها ماتفكرش تاني في الهرب طول عمرها.. (مصيلحي).. هات البلونة.."

أخرج مصيلحي لفافة صغيرة من جيبه بها حقنة أعدت مسبقا، حقنة مخدرات، ناولها لـ(زكريا) الذي حقنها في ذراع (رزان) الأيسر في وسط صرخة منها كادت أن تخرج روحها، ثم أتبع:

ـ "ثلاث حقن كمان كل اتناشر ساعة وهتبقى تحت الطوع..."

خرج من الغرفة تاركًا نظرة الشماتة في عين (سلوى) و(مصيلحي) تجاه (رزان)، وتاركًا معه انهيارًا تامًا لـ(رزان).... ودرسًا لأصدقائها.

خرج (مصيلحي) خارج الغرفة، فاستقبله (زكريا) غاضبًا:

ـ "انت شكلك بدأت تخرف في شغلك، إنت كنت هتودينا في داهية"

ـ "أنا كنت مستنيها تحت وده حصل فجأة"

ـ "حصل وإنت شغال حشيش تحت مش كده؟"

مد يده في جيب (مصيلحي)، وأخرج سيجارة حشيش وضعها بين يده، ثم فركها أمامه:

ـ "ده آخر إنذار ليك انت كمان، بعد كده هينالك نفس عقابهم.. لأ أشد.. مفهوم؟"

ابتلع (مصيلحي) لعابه في سخط، قبل أن يتابع (زكريا):

ـ "أنا كنت فاكرك قد المسؤولية لكن طلعت خيخة"

نظر إليه (مصيلحي) نظرة شر ولم يجب، فدفعه (زكريا)، ثم غادر...

ظلت نظرات ولعنات (مصيلحي) تتابع الحج (زكريا)، حتى توارى خارج باب الفيلا.

مر يومان كانت (رزان) قد تحول لون ذراعها في موضع الحقنة إلى اللون الأزرق، كانت مستعدة تمامًا لأن تكون ضمن عبيد هذه المنظمة، تذكر ذلك حين يحين موعد الحقنة التالية ويرتجف جسدها...

جلست (وردة) بجانب (رزان):

- "مش قلتلك مفيش مفر، أحسن لك مشي أمورك معاهم، قلت لك ده قدرنا"

"وبعدين يا (وردة).. خلاص اتكتب علينا مصير اسود؟"

"لا أبدًا، هتنسي كل ده مع الأيام"

"إنتي عندك تلاتة وعشرين سنة، هتفضلي كده لغاية امتى!!؟"

"أحسن لك تشيلي التفاؤل من دماغك، إحنا اتكتب علينا الوضع ده، ولازم على الأقل ناخد أحسن ما فيه"

"إنت بقيتي تتكلمي بطريقتهم.."

"لازم تعرفي إنك محظوظة.. برغم الحقن والحاجات اللي بيدوهالنا إنت محظوظة لأن ده أقل عقاب حد خده في المكان ده، يمكن لأنك جميلة ماحبوش يخسروا جمالك لكن افتكريني بإن ماحدش فيهم هيتردد في قتلك بعد كدة... حضري نفسك علشان بكره في حفلة"

تركتها (وردة) واتجهت إلى سريرها لتنام، أما (رزان) فلم يزدها كلام (وردة) إلا حيرة وإحباطًا.

*****

وقفتُ بباب بائع القلوب أبتاع قلبًا بعد أن دفعتُ إليه عشرة دنانير فقال: "أيّ حجمٍ تريد؟".. قلتُ: "قلبًا كبيرًا يتسع لفرحي إذا سعدتُ، ولحزني إذا

بكيتُ، ولدمعي إذا ذرفتُ، ولغضبي إذا صرختُ، ولطلبي إذا سألتُ، ولِلومي إذا عاتبتُ، ولنَصَبي إذا جهدتُ"

فتعجب البائع، وقال: "فأيّ لونٍ تريد؟"... قلتُ: "أبيض اللون كثوب العابد في محراب الصلاة، أو ضوء القمر في ليل الفلاة"

قال: "فأيّ وزنٍ تريد؟".. قلتُ: "ثقيلًا بالحبّ والعطف والعطاء، خفيفًا بريئًا من الحقد والحسد والبغضاء"

قال: "فكم سرعة دقاته؟".. قلتُ: "دقةً أو دقتين إذا ما نمتُ أو سكنتُ، وألف دقةٍ إذا ما مرضتُ أو سقمتُ"

فبكى البائع، ورَدّ إليّ مالي ومثله معه، ثم أغلق الدكان واستبدل لوحته بلوحة: "مغلق لعدم وجود قلوب"

*****

الساعة التاسعة مساء..

قصر الشرنوبي..

اجتمع عدد من الفتيات يجلسن على أريكتين متجاورتين يلبسن الثياب القصيرة ويضعن ألوان الماكياج الصارخ في وجوههن، أما الأرائك المقابلة، فكانت لضيوف من بينهم (سلوى) التي تجلس بجانب أحد المليونيرات -كعادتها- من دول الخليج وبعض الحراس الشخصيين الذين وقفوا على حراسته، وبجانبهم بعض رجال الأعمال بأزيائهم المختلفة الألوان والأنواع.

بدأت موسيقى الرقص، فخرجت (رزان) في ثياب الرقص القصيرة المثيرة ترقص على أنغام الموسيقى، وتتمايل على بعض الحاضرين. كادت نظرات الرجل الخليجي الذي سبق أن طلبها أن تلتهمها، فحصت عيناه جسدها من

الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل، يشرب كأس الخمر بنهم شديد ويمسك في اليد الأخرى بعض الفستق الذي كان يلتهمه دون مضغ مثل حبوب الدواء.

أشارت (سلوى) إلى الفتيات اللاتي يجلسن:

ـ "اختار اللي تعجبك يا سعيد بيه"

نظر إلى الفتيات متفحصًا، ثم رفع نظره إلى (رزان)، وأشار إليها:

ـ "قولتلك البنوتة دي"

أخرج من جيبه بضعة آلاف من الجنيهات ووضعها في يد (سلوى) التي فتحت فمها قبل أن يقول:

ـ "واضح إن الشيكات ما عملت مفعول.. أعرف تحبون الكاش"

قامت من مكانها واتجت إلى (رزان) هامسة في أذنها، ثم عادت لتجلس، وبعد انتهاء الحفلة دخلت بعض الفتيات الغرف مع رجال من الحاضرين، أما (رزان) فقد أغلق الرجل الباب عليها وأخذ ينظر اليها في نهم:

"تعالي قربي"

اقتربت منه واثقة لا تفكر وقد حسمت أمرها:

ـ "عاوز تبقى الحكاية إزاي؟ أنا أبدأ ولا انت؟"

ـ "لا ابدئي إنتي.. ده إنتي شكلك فنانة"

أخذت تنزع عنه الثياب في هدوء، وانخرطت معه بهدوء مماثل في ليلتها الأولى..

في أثناء عودتها في السيارة، طلبت من (مصيلحي) أن يتوقف أمام عطارة لتشتري منها عشبًا ذاكرة أن مغصًا شديدًا قد ألم ببطنها، تردد للحظات حيث فاجأه الطلب، ثم لم يلبث أن وافق:

ـ "على شرط... ثلاث دقائق بالعدد"

ظل يراقبها، وهي تشتري بعض المساحيق المطحونة، ثم تحركت يمينًا إلى محل أدوات للتنظيف اشترت منه زجاجة صغيرة، ركبت السيارة ثم انطلقوا..

في منتصف الليل، أفاقت (رزان) من سريرها، ترتدي ثياب النوم، تحركت ببطء خارج الغرفة على أصابع قدميها، دخلت غرفة (مصيلحي) الذي كان مستغرقًا في النوم، اقتربت منه ببطء، أفاق فجأة:

ـ "بتعملي إيه؟"

ـ "أنا شفت الحاج (زكريا)، وهو بيعاملك إزاي"

رفع حاجباه:

ـ "وإنتي مالك؟"

ـ "مالي مصلحتك.."

ـ "إنتي عاوزة ايه!!؟"

ـ "انت تستحق تكون في مكان أحسن من اللي انت فيه، مش هبالغ لو قلت مدير للمملكة دي.. انت اللي بتعمل كل حاجة؛ بتوصل وتجيب وناخد قرارات وتشتري الحاجات، يعني المدير الفعلي، سايبه ليه يتحكم فيك!؟"

صرخ فيها:

ـ "اسكتي!"

ـ "أنا ممكن أكون معاك، نساعد بعض.."

ـ "ما فيش بيننا مساعدة.."

تابعت كأن لم تسمعه:

ـ "وتبقى انت الريس، هو مش أحسن منك في حاجة"

دفعها خارجًا:

ـ "امشي من هنا بسرعة بدل ما أنده على حد وأوديكي في داهية"

ـ "أنا فكرت في طريقة جهنمية، طريقة تبقى انت الكل في الكل.. مع مدام (سلوى) طبعًا"

دفعها خارجًا:

ـ "يلا من هنا، اخرجي!"

أغلق الباب خلفها في انفعال كما لو كان كابوسًا زاره في منتصف الليل، تنهد، ثم أضاء مصباحًا بالقرب من سريره، وأخذ يفكر في لعنة كلماتها التي كان معظمها صحيحًا.

خرج من غرفته كالمجنون، ذهب إلى غرفة (رزان) حيث كانت على سريرها وبجانبها (وردة) التي كانت مستغرقة في النوم، أخرج حقنة الهيروين، واقترب من (رزان)، استيقظت (وردة) لتجد (مصيلحي) يدفع المخدر في شرايين (رزان) بقوة، كانت تبكي متألمة، سقطت مغمضة عينيها حين سرى المخدر في جسدها.

لم يدرِ لماذا فعل ذلك.. ربما أراد أن يثبت لنفسه عكس ما تقول الفتاة.. أراد أن يؤكد لنفسه أنه شرير، قاس ذو مخالب.

كان كلام (رزان) قاسيًا بالنسبة له؛ فهو يعلم أنهم يقومون باستغلاله وإلقاء العمل السيء والصعب له، ولا يحظى بذلك إلا بسوء المعاملة وقلة الاحترام والفتات من المال!!

*****

ظن الفريق الأسود أن الفريق الأبيض نادم على حركته الأخيرة التي فقد فيها الجندي.

*****

انطلقت أصوات كلمات التهاني والتبريكات بشكل جماعي من صالون فخم في فيلا عريقة بشارع أبو الفدا بالزمالك، تتوسطه طاولة بيضاوية ذات لون بني داكن مصنوعة من خشب الزان وبجانبها كرسيين ذهبيين صغيرين، وبوفيه بني من نفس اللون، اعتلت الطاولة كيكة كبيرة مكونة من أربعة طوابق يعلوها تاج ذهبي، مصنوعة من الشوكولاتة البيضاء والسوداء معًا، كتب عليها بلون أحمر (عيد ميلاد سعيد)، وضعت فيها شمعة تحمل الرقم ١٥ يتناثر حول هذه الكيكة قطع ملونة من الكعك الصغير والحلوى وأطباق من الفاكهة التي تعددت أشكالها وألوانها، تتناثر على الطاولة بعض الزهور الوردية ومزهريتان تحملان ورودًا مختلفة الألوان، وبجانب ذلك كله شموع وردية عملاقة تتكأ على شمعدان وردي. تتناثر في الصالة البالونات الملونة بأحجامها المتفاوتة وألوانها المبهرة، وطاولة أخرى في ركن الصالة وضعت عليها هدايا الزائرين، تفنن كل واحد في تغليف هديته بأبهى الألوان وأرقى الشرائط، وزينة تهيج في المكان ما بين ورود معلقة وأشكال متدلية. اجتمع الجمع من الشباب والشابات حول الكيكة يرددون تبريكات عيد الميلاد

ويلتقطون الصور، أُطفِئت الشموع وأضيئت الأنوار، فطبعت (مديحة) قبلة على خد ابنتها المدللة:

ـ "كل سنة وإنتي طيبة يا (دينا)، عقبال ١٠٠ سنة وإنتي دايماً فرحانة وجميلة والناس حواليك.."

ـ "ربنا يخليكي يا ماما يا حبيبتي، مدام إنتي حواليا يبقى مش عاوزة حاجة تانية من الدنيا"

أخرجت (مديحة) خاتمًا ذهبيًا صغيراً فيه ثعبانان يتعانقان:

ـ "ده هدية عيد ميلادك.. كل سنة وإنتي طيبة يا حبيبتي"

ـ "كل سنة وإنتي طيبة يا مامي، مفيش عربية جديدة كده ولا حتى موتوسيكل؟"

ـ "انتي مابتشبعيش!؟ ما أنا عارفاكي.. دلعناكي ومش عارفين نرجع تاني.. على العموم في هدية صغيرة تانية هتحبيها أكتر من الإسورة اللي بفلوس كتير"

قفزت (دينا) كمن لمسه سلك كهرباء عار: "بجد؟ إيه هي؟؟"

ـ "تعالي معايا.."

ذهبت بها (مديحة) إلى طاولة قريبة عليها كيس هدايا فضي لامع يخفي شيئًا تحته.

"ارفعي الكيس.."

اقتربت (دينا) ببطء وحاولت تخمين ما تحت الكيس، رفعته فوجدت نبتة خضراء بها أشواك صغيرة، عرفتها على الفور:

ـ "إيييه ده!!؟ صبار هولندي! أنا مش مصدقة!!"

كانت تنظر إلى النبتة كأنها حبيب افتقدته عبر مر العصور.

- "يا حبيبتي يا مامي!"

- "دي دوختني يا (دينا).. لغاية ما دلني عليها واحد بيشتغل في حديقة الأورمان"

قبلت (دينا) والدتها:

- "تسلمي يا أغلى أم في الدنيا"... ثم قبلت والدها واحتضنتهما في فرحة ممزوجة بالدلع: "ربنا يخليكو ليا"

نظر الوالدان إلى بعضهما قبل أن يبتسما وتحضنها والدتها:

- "ربنا يخليكي إنتي لينا يا أحلى (دينا)... يلا روحي اقعدي شوية مع أصحابك بدل مانتي مطنشاهم"

لم تكن (مديحة السيد) إلا (سلوى) والدة (دينا)، امرأة من الطبقة المتوسطة، مختلفة تماما عن شخصيتها (سلوى) ضيقة الصدر، يلتم شعرها البني على جانب واحد مثل الطاقية، ويتدلى قرطان ذهبيان لولبيان كبيران من أذنيها. تلبس فستانًا ذهبيًا، وترتدي شالًا بنيًا من الصوف على كتفيها زادها جاذبية، تمسك بحقيبة صغيرة حمراء وبها حواف ذهبية، وتمشي في كبرياء وتتنفس الخيلاء.. امرأة بدا عليها الحكمة وقوة الشخصية.. وبدا عليها طيبة وضعفا نحو ابنتها الوحيدة.

أما (حسن)، زوجها رجل يعمل في مجال الطاقة، فكان يكبرها بعشر سنوات، ملأ الشعر الأبيض رأسه وتخلل الهدوء والسكوت ملمحه، رجل في منتصف الستين، أنيق، يرتدي بدلة رمادية اللون، يميزه طوله ورشاقة جسمه، حاد الأنف، حليق الذقن إلا قليلًا من الشعر الذي أعطاه جاذبية ممثلين السينما، معظم حياته يقضيها بين سفرياته، والكتب السياسية.. إلا أنه كان ضعيف

الشخصية.. ربما بحكم مرتبه الضعيف الذي لا يكفي طلبات (مديحة) وابنتها التي لا تنتهي، والذي أجبر (مديحة) على العمل للارتقاء بمستوى معيشتهم. لم تحبه (مديحة) يومًا بعد أن تزوجته زواج صالونات وهي في مقتبل العشرين من عمرها. كانت على وشك الانفصال عنه عدة مرات، إلا أن إنجاب (دينا) الذي جاء متأخرًا بعد عدة محاولات جعلها تعدل عن الفكرة.

ترك الوالدان (دينا) لتنتشر بين أصحابها في لهو طفولي، ينظر الحاضرين من أماكنهم إلى تلك الفتاة المدللة، ذات الشعر الذهبي المجعد، والقوام الأنثوي الممشوق، بوجهها الأبيض وأنفها المستقيم وعينيها البنيتين، وهي ترتدي فستانًا بنيًا فصل على مقاس جسدها، وزاد عينيها بريقًا ووجهها جمالًا، وذلك الحذاء الذهبي الذي عكس لون شعرها ليرسم صورة أشبه بسندريلا، تتحرك في تمايل وخفة أسرت معها قلوب الحاضرين، تمناها كل رجل لابنه وتغامزت ألسنة السيدات عليها، وأحرقت نار الغيرة أترابها.

تهمس إحدى البنات لصديقتها: "يا بختها! دلع وجمال وفلوس.. لأ ومامتها وباباها بيخافوا عليها زي النسمة"

بينما تقول إحدى السيدات لابنها:

ـ "مش تتجدعن كده وتخطف قلب البنت دي"

تلاحقها الأعين أينما ذهبت، حتى وقفت أمام صديقتها (مروة) ذات الشعر البني المجعد.

ـ "إيه الشياكة دي!؟"

ـ "ده إنتي اللي قمر يا (مروة)"

ـ "بقولك إيه؟ تعالي نقعد على سور الڤيلا نرغي شوية، أنا هموت على سيجارة"

قاطعتها (دينا): "وطي صوتك!"

"يوووه بأة! هما عاملينلك رعب كده على طول!؟"

ـ "أنا لسة في أولى ثانوي.. وبعدين مانتي عارفة، ده أنا لو مع جوزي برضه هيخافوا عليا"

أشارت (مروة) بامتعاض: "طيب يلا بينا"

جلست الفتاتان على السور تتحدثان في مراسم العيد ميلاد، وذلك الولد ذو الشعر الكنيش الذي تشبه مقدمة رأسه غرة الطاووس، وتلك السيدة التي تحاول التقرب إلى (دينا) التي كتمت ضحكات كادت تخرج من فمها بسبب الفيونكة الحمراء التي في فسنان السيدة.

تكلمتا كثيراً عن الخوف الزائد من والدي (دينا) عليها، وكيف كانا يمنعانها من تقطيع الخبز بالسكين خوفًا عليها، وكم الوعود التي قطعتها لوالدتها بعدم الجري وراء الأزهار والنباتات والاهتمام بدراستها.

ـ "أخبار أخوك (ياسر) إيه يا (مروة)؟ لسة مجنون زي ماهو؟"

ـ "آخر مرة كنا في رحلة وركبنا خيل وهو ماكانش ركب قبل كده، ولما سأله صاحب الخيل عندك خبرة في ركوب الخيل قالوا من زماان راح جايبله فرسة اسمها عزيزة، خاصة بالمحترفين، ركبها وماقولكيش إيه اللي حصل، قعد يصوّت واتقطع الشورت بتاعه"

ضحكت دينا فتابعت مروة في مرح:

"واليوم اللي بعديه كنا رايحين نعوم.. قلنا له بتعرف تعوم؟ قال (أيوة) ونط في البحر، وكان آخر ما شفناه أدوات السباحة طافية لوحدها على وش المية لولا سباحة بريطانية أنقذته"

"هو مش هيبطل هتش!؟ هههه، لا بجد هو إزاي كده!؟"

"وآخر يوم قررنا نتسلق جبل سانت كاترين ووقف في وسط الجبل يعيط عاوز حد يزقه"

قطع حديثهما سيارة سبور تسير بسرعة، قبل أن تتوقف فجأة ليُرى فيها شابين وسيمين.

توقفت السيارة الرياضية أمامهما..

أخرج الشاب الذي يقود السيارة رأسه، قبل أن يسأل:

- "مساء الخير.. متعرفوش شارع ٦٠ فين؟"

أجابت (مروة) إجابة الواثق: "جنب واحد وستين"

عض الشاب على أسنانه، بينما كان الشاب بجانب السائق ذو الوسامة العالية والملامح المستقيمة لا يرفع نظره عن (دينا).. ثم انطلق بالسيارة في حركة فجائية غاضبة قبل أن تستوقفه (مروة) مرة أخرى:

- "بقول لك!"

توقف، وأخرج رأسه مرة أخرى قبل أن تردف (مروة):

- "وممكن تلاقي بعديه شارع اتنين وستين وبعديه تلاتة وستين وكده.."

انطلق الشابان في حنق وسط ضحكة هستيرية من (مروة).

- "يا بنتي مش هتبطلي حركاتك دي، دول شكلهم تايهين بجد"

- "دول بيستعبطوا، مالقوش غيرنا يسألوه!؟"

أشارت (دينا) بامتعاض قبل أن تنفجرا ضاحكتين.

*****

انقضت ليلة العيد ميلاد، وغادر الزوار، وودعت (دينا) (مروة).

ـ "بكره تعدي عليا هستناكي"

سارت (دينا) في أنحاء صالة الڤيلا تنظر إلى الفوضى التي خلفها الزوار.

ـ "يلا يا (دينا) غيري هدومك واطلعي نامي"

ـ "حاضر يا مامي"

صعدت (دينا) سلالم الڤيلا الفخمة متجهة إلى غرفتها، فتحت باب الغرفة التي يتضح لمن يراها أنها غرفة فتاة مدللة، سجادة وردية وسرير أبيض عليه لحاف وردي، وتابلوهات في كل مكان، ودمى ودباديب متناثرة، وبجانب السرير مكتب صغير اعتادت (دينا) أن تجلس عليه لتكتب خواطرها أو تنجز فروضها، خلعت حذاءها واستلقت على السرير وسط أفكار مشوشة لا تعرف مصدرها ولا تذكر أسبابها.

كانت تتمنى أن تقضي معها والدتها كل يوم دون أن تغيب بالساعات في العمل كعادتها، تمنت لو أنها كانت تحكي لها قصصًا أو تصفف شعرها كبقية البنات في عمرها.

دخلت (دينا) غرفة أخرى، غرفة مليئة بالزهور والنباتات الطبيعية، هواية نشأت عليها منذ نعومة أظافرها، تركض وراءها بشغف، لا تترك زهرة أو نبتة جديدة إلا واقتنتها، نباتات خضراء تنتشر في محيط الغرفة البيضاء التي خضبها اللون الوردي، أزهار تختلف ألوانها ما بين الأحمر والأبيض والأصفر

والوردي والبنفسجي، لديها تاريخ كل زهرة في ورقة علقتها بجانب كل نبتة، تفصل من أين أحضرتها وتاريخ نشأتها.

تركتها والدتها تهتم بهذه الهواية ظنًا منها أنها قد تبعدها عن هوايات أخرى خصوصًا أنها في سن المراهقة، لم تبخل عليها بالمال لشراء نباتاتها الصغيرة، إلا أنها أكدت عليها مرارًا ألا يعطلها ذلك عن فروضها المدرسية، استلت (دينا) وردة حمراء واستنشقتها ببطء، عادت إلى غرفتها.

استسلمت للنوم، بعد يوم شاق... وغابت في سبات عميق.

مرت أسابيع، سهرات راقصة يتبعها ليال حمراء تصب في النهاية في جيوب (سلوى) و(زكريا)، ويلقون الفتات إلى الفتيات ومعهم (مصيلحي) الذي لم يفكر في شيء خلال تلك الفترة إلا ما حركته (رزان) في نفسه من حنق وغضب. كان قد نسي أنه مهما فعل فإن مسماه الوظيفي (خادم).. لماذا اعتلى (زكريا) الإدارة!؟ الإدارة تتطلب ذكاء حادًا وهو يرى نفسه أكثر ذكاء من ذلك المدعو (زكريا)، أصبح كل مرة يراه فيها يستشيط غضبًا، احتج في عقله لتسميته نفسه بالحاج (زكريا)، أي حاج هذا يعمل في صفقات بنات الليل وسقيا الخمر!؟ أما (سلوى) فلم تكن تشكل له ذلك الطيف المرعب برغم قوة شخصيتها، كانت تعامله بشكل جيد إلا من بعض الصراخ المترتب على أخطائه، ربما كان دافعها لذلك هو اعتمادها الكلي عليه في كافة الأمور، لكن يظل الحاج (زكريا) هو العقل المدبر الحامي.. كم غاظه ذلك!! علم أن (زكريا) استغل منصبه في مجلس الشعب لتثبيت علاقاته مع بعض أمناء الشرطة والضباط الفاسدين، حيث كان يرضي مزاجهم بفتيات صغار مقابل تسهيلات خدمات عقارية ومرورية، لم يفصح يومًا لأحدهم عن نشاطه الخفي، ولو ابتغى حمايته ولو أقرب أقربائه أو أصدق أصحابه.

أما (وردة) فكانت ملازمة لـ(رزان) في كل لحظة تمضيها في البيت، كانت مصدر الحنان الوحيد الذي يسقيها بعد أن تمزق فؤادها، تقضي أوقاتًا كثيرة في الغرفة تجدل شعرها ضفائر، ثم لا تلبث أن تسدله لتملأ وقت فراغها بأي شيء غير الملل، كانت تحس أن (رزان) صبية مختلفة، ذكية براقة، تدرك أن بداخلها بركانًا ثائرًا لا تملك لها (وردة) أن تخمده، فهي حتمًا لا تفهم شخصيتها الفهم الكامل، اكتفت بأن حذرتها مرارًا، واكتفت (رزان) بهزة رأس خفيفة في كل مرة.

كانت كثير من الفتيات تتملكهن الغيرة من جمال (رزان)، والاهتمام الزائد بها، خصوصًا في قهر العيش الذي ألفوه وارتضوه أسلوبًا للحياة، إلا أن ذلك لا يعني بأن تحظى فتاة بكل هذا الاهتمام، خاصة بعد أن زاد طلب كثير من زبائن (سلوى) لها، وأصبحت كالدجاجة الدلوعة التي تدر المال، دخلت (زينب) [إحدى الفتيات] على (رزان) ذات مرة، بنت متكبرة الطباع، تضع ماكياجًا ثقيلًا يخفي ما بداخلها من ضغينة، صرخت في وجه (رزان) التي استعملت قطعة ماكياج للفم كانت قد اشترته (زينب) لنفسها، أخذت الماكياج بعنف، ولطخت وجه (رزان)، التي دفعتها بدورها حتى اشتبكتا... تبادلتا الصفعات، وسقطت (رزان) على الأرض، فتدخلت حينها (وردة) التي سحقت (زينب)، ولطخت وجهها بقلم الميكياج الأحمر، وصل الخبر إلى (مصيلحي)، ثم (سلوى) التي لطخت وجه كلتا الفتاتين وعاقبتهما، أما (وردة) فعاقبتها (سلوى) بأن طلبت من صديقتها المقربة (رزان) أن تضربها بالحزام لتدخلها لصالح إحداهما أو كما ذكرت (لحشر أنفها فيما لا يخصها).. أبت (رزان) فما كان من (مصيلحي) إلا أن أحمى ضربة بالسوط على ظهرها، فطاعت الأمر وضربت صديقتها، وأدمتها بالحزام، وهي تعتذر وتتألم.. "أنا آسفة يا (وردة)"

*****

٢٣ فبراير..

الساعة الحادية عشر ليلًا..

استعدت (رزان) للدخول إلى غرفة أحد الزبائن، طلبها مسبقًا، استوقفتها هيأته، شاب وسيم يلبس بنطلون جينز وقميص أزرق يبدو باهظ الثمن، أبيض الوجهة، عسلي العينين.

همس في أذن (سلوى) منذ دقائق بكلمات، ثم وضع في يديها شيكًا مصرفيًا.

نظرت إليه بدهشة، وسرعان ما تحركت نحو الرجل المسن الذي كان يتكلم معها قبله محاولًا طلب (رزان):

ـ "معلش يا مستر (أدهم) أنا نسيت إن (رزان) محجوزة النهاردة، بكرة هتبقى تعدي عليك"

هكذا تعودت أن تفكر هي والحاج (زكريا)، أيهما يدفع أكثر يحظى ببضاعته المطلوبة حتى لو اضطرت لبيعها للشيطان نفسه.

امتعض وجه الرجل المسن لثوان، فسارعت تهدئ الموقف:

ـ "والنهاردة أنا جايبالك حاجة تانية هتعجبك، جمال أفرنجي وجسم بلدي"

أشارت إلى إحدى الفتيات الجالسات التي ترتدي فستانًا أحمر اللون يلمع بكامله، تحركت نحو الرجل المسن الذي سرعان ما نسي امتعاضه حين رأى الفتاة الجديدة، أخذت الفتاة كفه وجرته خلفها في ضحكة رقيعة، وهو يتحرك خلفها كنعجة سيقت بحبل.

كان الشاب الوسيم يجلس على حرف السرير المغطى بلحاف أبيض، تحت الأضواء الحمراء الباهتة والشموع المبعثرة في كل مكان، أنغام الموسيقى

الأجنبية الخفيفة تسود المكان المعطر، بدأت تخلع ملابسها في بطء، ناظرة إليه، اتجهت نحوه بما تبقى من ملابسها، جلست بجواره، وأرادت أن تقبل رقبته، أمسك بيديها وأبعدهما عنها.

تغيرت ملامحها، لتحل مكانها علامات عدم الفهم:

ـ "فيه حاجة!؟ أنا غلطت في حاجة!؟"

قال بلهجة أرستقراطية: "لا أبدًا"

أخرج سيجارة من جيبه، أشعلها، ثم نفث دخانها في هدوء:

ـ "عاوزين نتعرف على بعض الأول"

ضحكت، ثم أردفت:

ـ "نتعرف!!؟"

قالتها باستغراب؛ فلم يسبق أن طلب منها أحد ذلك، كانت تعلم أنها أقل من أن يحاول أحد التعرف عليها، وأن الزبون لو استطاع عدم سؤالها عن اسمها لفعل.. كانوا يدخلون عليها دخول الجياع على الطعام الشهي.. لا ينتظرون حتى أن تخلع ملابسها، يمزقوها بأيديهم قبل أن تنهش أنيابهم لحومها.

سكت قليلًا، فقالت: "أنا جاهزة أتعرف".. ثم غمزت بعينيها.

ـ "أيوة عاوز أرغي شوية.. قوليلي حاجة عن نفسك"

أجابت: "أنا شفتك دفعت شيك، واضح إن المبلغ اللي فيه محترم علشان تقنع (سلوى) تاخدني من الراجل التاني بعد ما اتفقت معاه"

ـ "فعلًا"

ضحكت: "طيب كل ده وتقوللي نتعرف!؟"

ضحك فأبدى ابتسامة جذابة اخترقت قلب (رزان) كالصاروخ، فتبدلت ملامحها إلى الجدية. كانت تعلم أن أمثالها لا يستحقون الشعور بالانجذاب نحو الآخرين، لم يكن لمثلها أن يهتم بحديثها شاب وسيم مثله، أو حتى أن تشعر بمشاعر الفرحة المؤقتة، أو حتى الكاذبة.

ـ "تحب نتكلم في إيه يا فندم؟؟"

رفع حاجبيه دهشة: "أفندم!!؟ ده إنتي قفلتيني خالص!"

ـ "أمال أقول إيه؟؟"

ـ "(نادر)"

ـ "طيب تحب نتكلم في إيه يا (نادر)؟؟"

ـ "أي حاجة، إنتي اسمك (رزان) مش كده؟"

هزت رأسها إيجابًا.

ـ "اسم جميل، لبناني حبتين، مع جمالك المبهر ده قلت يمكن أصلك لبناني"

ضحكت: "لا خالص، ده أنا حتى معرفش فين لبنان ده"

ـ "جنب كوبري أبو العلا"

ـ "لأ بجد أنا معرفش هي فين"

ـ "ليه!؟ مابتتفرجيش على التليفزيون!؟"

هزت رأسها نفيًا.

ـ "ليه!؟ عايشة تحت الأرض!؟"

وضعت رأسها أرضًا في حزن:

ـ "حاجة زي كده"

- "إيه؟ أنا قلت حاجة زعلتك؟"

- "لأ خالص"

- "طيب تعرفي إيه من الأماكن في مصر؟"

لم يرق لها كثرة أسئلته، كانت تعلم أن هناك تعليمات مشددة من (سلوى) والحاج (زكريا) للفتيات بألا يتحدثن عن أي شيء شخصي، والويل كل الويل لمن تفعل، لم تجد طريقة أفضل للهروب من أسئلته إلا بمباغتته.

- "والوجوه الجميلة المصرية اللي قدامك، هتعمل فيها إيه!؟"

- "ليه كل ما أتكلم ترجعيني لنقطة السرير تاني!؟ إنتي خايفة تتكلمي معايا!؟"

- "الموضوع مش كده، بس إحنا مش مسموح لينا نرغي في أمورنا الشخصية، وأنا كمان مش مرتاحة.."

نظر إلى عينيها لوهلة، أحست أن الدنيا تفلت من روحها..

أخذت فوطة كانت على السرير وغطت بها جسدها، كانت تشعر لأول مرة بشعور غريب، لم تدرِ مصدر الخجل الذي حل بها فجأة.

- "إنت شكلك حد مهم، أو باباك رجل أعمال.. صح؟"

ضحك حتى ظهرت أضراسه:

- "هو ليه لازم أي حد ناجح يكون باباه هو اللي عمله!؟ مينفعش يكون شاب ناجح لوحده مثلًا!؟ أنا يا ستي رجل أعمال بنيت نفسي بنفسي، بتاجر في الحديد، تخيلي والدي بيشتغل إيه؟"

- "ممم.. في النحاس مثلًا!؟"

- "ههههه.. ماشي ملعوبة، لأ راجل عادي جدًا، ومدرس بالمعاش كمان"

رفعت حاجبيها دهشة: "واو! شكلك مكافح وكده. طيب ليه ماتجوزتش وتوفر الفلوس اللي بتصرفها على البنات؟"

ـ "جواز يعني ارتباط، يعني مسؤولية وعيال و"رحت فين يا (نادر)؟" و"جيت منين يا (نادر)؟"، وأنا بصراحة ماليش في الألش ده أبدًا"

ـ "طيب مانت حتى لو نمت كل يوم مع واحدة مانت هتزهق في يوم من الأيام وهتعوز تتجوز برضه"

ـ "أهو، لغاية ما أزهق.."

حول مجرى الحديث فجأة:

ـ "إنتي بتشتغلي كل يوم؟ هي مدام (سلوى) معاكي من زمان و..."

اقشعر بدنها؛ فقد كانت تدرك يقينًا أنها غير قادرة على الفرار من أسئلته، وإن كان لابد أن تفعل؛ لم يكن لها أن تتفوه بكلمة عنها أو عن حياتهم في البيت.

سكتت، ونظرت إليه قليلًا، اتجه نحوها رفع رأسها: "فيه حاجة جواكي غريبة.."

ـ "يا (نادر) بيه!"

قاطعها: " تاني بيه!؟ (نادر) بس! قلتلك (نادر)!"

ارتجفت، وهي تنطق باسمه: "يا (نادر)، أنا بنت غلبانة بتاكل عيش وهم دول أهلي، متودينيش في داهية، أرجوك!"

قاطعها مرة أخرى: "عارفة أنا ناديتلك ليه؟ واخترتك ليه أتكلم معاكي؟"

نظرت في حيرة دون أن تتكلم، فأتبع:

ـ "علشان حسيت إنك مش واحدة منهم، وإنك غير البنات التانيين، أنا مش بنجم بس عندي فراسة كافية وخبرة أقدر أحس بيها.. فيه حاجة غريبة فيكي"

سرحت ببصرها، وهي ترجع خطوة إلى الوراء:

ـ "يا (نادر) بيه يا تنام معايا يا تسيبني أمشي!"

ـ "حاضر هسيبك تمشي، بس افتكري إنك لو حبيتي تقوليلي حاجة مش هفضح سرك، أنا ببقى موجود كل يوم من سبعة لتسعة بالليل على قهوة البردي في أول شارع الهرم. لو في يوم من الأيام عرفت أشوفك يبقى شيء رائع"

"ماعتقدش، مستحيل، إحنا مابنخرجش"

"طيب أكلمك على تليفونك"

"ممعاناش تليفونات..."

ضحك باستهزاء: "إيه يعني!؟ مخطوفين من عصابة!؟"

نظرت إليه في هدوء: "أنا ماشية"

حك ذقنه: "أنا آسف، مكانش قصدي أزعلك"

لبست ثيابها، ثم خرجت... لا تدري أتلعن الفرصة التى جمعتها بـ(نادر)، أم تشكرها بأن جعلتها تحس، ولو لخمس دقائق أنها أنثى حقيقية، وليست لحمًا جاهزًا للأكل.

*****

استكمل الفريق الأبيض خدعته بأن أخرج وزيره ليهدد الحصان الأسود، وفي نفس الوقت يهدد الجندي الأسود الذي

يتقدم القلعة بمربع وبزاوية منها وهنا كان أمام الفريق الأسود خيارين: إما أن يكمل انطلاقه بحصانه ليلتهم العسكري الأبيض، ويهدد الوزير الأبيض والقلعة البيضاء. أو يتحرك بفيله الأسود الذي أخرجه سابقًا، ويلتهم العسكري الأبيض مهددًا القلعة.

*****

وقفت (رزان) خلف الباب تستمع إلى (سلوى) التي كانت تتحدث في هاتفها المحمول:

ـ "أيوة يا (دينا)، طبعًا جاية بكرة الحفلة، وأنا أقدر أتأخر عنك يا قمر!؟ عاوزاكي تنامي بدري النهاردة"

ـ "......................"

ـ "تاني هتقوليلي أزهار ونباتات نادرة!؟ هتفضلي تلمي في الحاجات دي لإمتى!؟"

ـ "..................."

ـ "لأ يا حبيبتي والله مش مشكلة فلوس، الفلوس موجودة والحمد لله، أنا بس مش عايزاها تعطلك عن دراستك"

ـ "................."

ـ "كل يوم فيه جديد، أنا بس مش عارفة إنتي بتتأكدي منين إن اللي بيبيعهالك مش بيضحك عليكي! يعني إنتي عارفة أكيد إنه جابها من جنوب أفريقيا ولا موزمبيق!؟ على العموم اسمعي علشان معنديش وقت.."

- "أنا هطلبلكم بيتزا دلوقتي، تاكليها وتنامي على طول، مفيش سهر... مفهوم؟"

أغلقت الهاتف، ثم طلبت رقمًا آخر:

- "آلو... بيتزا باجتشي، عاوزين واحدة لارج سوبريم، العنوان ١٣ شارع أبو الفدا فيلا ٦ شكرًا..."

لم تدرِ (رزان) ما دفعها حين ذاك لأن تذهب إلى غرفتها، وتخرج ورقة صغيرة وقلمًا، ثم تدون العنوان قبل أن تدسه في حقيبة صغيرة.

في مدرسة النور بالزمالك، في قاعة الاحتفالات الواقعة بالمسرح الرئيسي، اجتمع عدد من أولياء الأمور والمدرسين وبعض الطلبة في حفل المدرسة المعتاد في وسط العام.

توقفت ناظرة المدرسة بهيأتها التي توحي بالهيبة والوقار، وشعرها الذي تتخلله شعيرات بيضاء، شامخة لكن مبتسمة:

- "النهاردة يوم تكريم ليكم جميعًا، للأمهات والآباء اللي تعبوا مع بناتهم علشان يقدروا يواصلوا المهام الصعبة في تحصيل العلم ويوصلوا ليوم زي النهاردة، النهاردة حديثنا عن أم، رشحتها بنتها معانا لجايزة الأم المثالية، ضحت بجهدها وشغلها المستمر علشان ترفع مستوى حياة بنتها في المعيشة الكريمة، قالت بنتها إن الابتسامة والحنان اللي نابعين منها هما كانوا السبب في تفوقها الدراسي وحصولها على المركز الأول، جديتها وعدم استهانتها بالفروض والواجبات الدراسية في المنزل كان دافع آخر.... وصفتها بنتها بالملاك الحارس لطيبة قلبها وحنيتها"

"نعلن لحضراتكم الأم المثالية لهذا العام"

"(مديحة السيد)!".. قالتها بصوت جهوري.

صفق الجميع، بينما تحركت سيدة أنيقة تلبس بدلة حمراء باهظة الثمن، صعدت بخطوات واثقة واعتلت المنصة وتكلمت في الميكروفون:

ـ "شكرًا لكم..."

ـ "شكرًا لكم جميعًا. في البداية أحب أشكر ناظرة المدرسة السيدة (دلال فتحي) على جهودها العميقة في المدرسة، وفي تنظيم الأنشطة والاهتمام بالتكريم، وأشكر كل المدرسين والعاملين في المدرسة واللي ساهموا في إنجاح مشروع التعليم فيها... فاجئتني بنتي دينا بإنها رشحتني للقب ده.. لقب الأم المثالية.. وأكيد كل الأمهات والمدرسات الحاضرات النهاردة أمهات مثاليات.. أنا زي أي أم بتهتم براحة بنتها الوحيدة، ومستقبلها هو أهم حاجة في حياتي، ومستعدة في سبيلة للتضحية بكل حاجة..."

"أنا من الناس المؤمنين بإن الحنان والحب هم أكتر حاجة بتدفع البنات والأولاد والأطفال والمراهقين للإنتاج بصورة أفضل، زي ما أنا مؤمنة إن التربية والمثل والقيم هم أهم حاجة في الزمن الحالي علشان نقدر نحافظ عليهم من تيارات الانحراف.. أشكركم مرة تانية"

صفق لها الحضور تصفيقًا حارًا، ناولتها الناظرة الجائزة التي هي شهادة تقدير كبيرة في برواز ذهبي، وضعته في يدها وابتسما للصور التي انهالت عليهم من المصورين ومن تليفونات الحاضرين.

نزلت إلى الساحة واقتربت من (دينا) التي كانت واقفة بجانب كرسي تبتسم في فرحة، وقد خرجت بعض دموع الفرح رغمًا عنها، صفقت لها (دينا) في حرارة.

ـ "كده برضه يا (دينا)، تحطيني في الموقف ده!؟ بتفاجئيني دايمًا"

قبلتها (دينا): "إنتي تستحقي تكوني الأم المثالية في العالم كله مش بس في المدرسة"

احتضنتها: "ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي!"

نظرت (مديحة) إلى الكراسي المحيطة: "أبوكي فين؟؟"

أشارت (دينا) إلى كرسي بعيد في الأعلى، كان (حسن) ينظر إليها في فرح وابتسامة واسعة، لوح لها فلوحت له في برود.

ـ "إيه يا ماما، الراجل جاي يحضر حفلة التكريم، وأنا قلتله على إنك ممكن تكوني الأم المثالية زي ما مس (غالية) توقعت لي"

ـ "ممم.. إنتي شاكلك كنت عارفة..."

ابتسمت (دينا):

ـ "طبعًا، ومكانش ينفع غيرك إنتي يكون الأم المثالية يا قمر"

ـ "طيب كفاية بكش بأة وشوفوا تحبوا تتغدوا فين"

ـ "أنا عليا المكان وإنتي عليك الفلوس".. قالت (دينا) وهي تمسك بذراع (مديحة).

أشارت (مديحة) إلى (حسن) الذي كان جالسًا لا يكترث لما يحدث حوله:

ـ "وأبوك عليه الأكل"

ضربا كفيهما مع بعضيهما في ضحكة عالية وفرحة.

*****

أفاق (مصيلحي) من صداع شديد يلتهم رأسه بعد أن عاد من رحلة صغيرة زار فيها الصعيد، مدينة قنا، حيث كان يزور بعض أقاربه، فتح أنوار غرفته

ممسكًا برأسه يبحث عن دواء مسكن يخمد هذا البركان الثائر في رأسه فلم يجد، تحرك ناحية غرفة الطبيب الذي لم يكن موجودًا في غرفته، دخل الغرفة وأخرج حقيبة الطبيب التي كانت متروكة في دولاب غرفته، أخرج الحقيبة السوداء، وفتح علبة مقسمة بها أدوية عديدة، أخرج منها أقراص معالجة الصداع، جلس يقرأ ما هو مكتوب عليها بصعوبة توحي بأنه لم يتم تعليمه إلى الدرجة الكافية لقراءة خط على شريط دواء حين فتحت الغرفة فجأة...

ـ "مدام (سلوى)!"

ـ "ماعرفش إنك هنا".. قالت (سلوى) مقطبة حاجبيها.

ـ "لسة داخل، هموت من الوجع.."

نظرت إليه في شك:

ـ "بتعمل إيه عندك يا (مصيلحي)!؟"

ـ "عندي صداع جامد يا ست هانم، وبدور على برشام للصداع"

ـ "انت عارف إن ممنوع حد يدخل غرفة الدكتور وهو مش موجود؟"

ـ "عارف ياست هانم لكن الصداع هيفرتكني"

قالها، ثم خرج من الغرفة، وهي تلاحقه بنظراتها في شك...

*****

الفصل الخامس

"إحدى الدروس القاسية التي على المرء تعلمها في الحياة
"حقيقة" أن ليس الجميع يتمنى لك الخير"

دان راذر

اختار الفريق الأسود الخيار الأول، فحرك حصانه مستكملًا الهجوم، وملتهمًا العسكري الأبيض، فما كان من الوزير الأبيض إلا أن استكمل الفخ بأن تحرك في حركة طولية مباشرة، ليلتهم الجندي الأسود، ويهدد القلعة السوداء.

*****

"لا تعجب لشيء؛

إن للحقيقة وجهين، وللناس أيضًا "

أمين مخلوف

*****

كانت (رزان) يصيبها شعور بالاشمئزاز كلما راودها إحساس الإدمان الذي زرعه فيها ذلك الشخص المدعو (زكريا). تتأوه ثم لا تلبث أن تركض إلى (مصيلحي) ليريحها من عذابها بحقنة تهدئ من روعها، إلى أن أتتها (سلوى) تنظر إليها يومًا في تعجب:

ـ "فيه واحد مهم طالبك بالاسم. عاوزك ليلة، يظهر إنك دخلتي مزاجه، بس هو في إسكندرية. حضري نفسك هتروحي مع (مصيلحي) بالقطر، ومش عاوزة أفكرك بعواقب أي حركة غدر زي اللي عملتيها قبل كده، هتكون فيها رقبتك هي الثمن"

غادرت الفتاة مع (مصيلحي)، ركبا القطار الذي ظلت فيه صامتة تشاهد الطريق حولها، إلى أن وصلا إلى فيلا صغيرة قريبة من الشاطئ، في ضاحية العجمي في الإسكندرية، أكد عليها (مصيلحي) رافعًا حاجبه الأيسر بأنه

سيبيت ليلته في السيارة ينتظرها حتى تخرج، وأكد عليها عواقب الغدر مرة أخرى.

دخلت (رزان) إلى الڤيلا تمشي ببطء، تنظر إلى زخرفها الرفيع الذوق، وأثاثها الجميل الذي يعكس ذوق صاحبه لتجد (نادر) بانتظارها في بدلة أنيقة، رفعت حاجبيها دهشة.

- "واو! ماتوقعتش إن يكون انت!"

ابتسم في هدوء:

- "أنا حبيت أشوفك وأطمن عليكي"

- "تطمن عليا أنا!؟" ضحكت ضحكة عالية... "ده أنا عمر ما حد قالهالي"

- "إنتي عامله إيه يا (رزان)؟"

تحركت عيناها بعيدًا: "الحمد لله... حلو أوي ذوق البيت"

- "إنتي ليه دايمًا بتهربي من أي سؤال عن نفسك!؟"

- "لأن مش المفروض إني أتكلم عن نفسي"

نظرت إليه، ثم تابعت:

- "انت عرفت (سلوى) إزاي؟"

- "ولا حاجة، واحد صاحبي دلني عليهم، كنت خارج من علاقة عاطفية فاشلة كالعادة، قال أنا هنسيك، بنات صغيرين وجمال، بس إنتي جميلة أوي أكتر مما كنت أتخيل"

- "إيه زهقت من البنت ولا هي مشيت؟"

- "لا ده ولا ده.. اكتشفت إن عمرها ما حبيتني أصلًا"

- "وانت... حبيتها؟"

خفض رأسه قليلًا.. فتابعت:

ـ "أنا آسفة"

ـ "لا عادي بس الموضوع انتهى خلاص"

ـ "طيب وانت كده هتنسى؟"

ضحك..

ـ "أنا نسيت خلاص أصلًا".. قالها ثم حول دفة الحوار فجأة:

ـ "إنتي إزاي اشتغلتي في الشغلانة دي؟"

ـ "أنا كبرت لقيت نفسي كده"

ـ "وهم بيعاملوكي كويس؟"

ـ "إحنا مبسوطين معاهم، بيتكفلوا بأكلنا وشربنا وهدومنا أحسن ما نبقى مشردين في الشارع"

ـ "ليكي أهل؟"

ـ "معرفش أي حاجة"

ـ "ممم.. إجاباتك مختصرة.. بتهربي تاني، أنا مش عاوز أضايقك"

نظر إليها طويلًا، محاولًا قراءة أفكارها:

ـ "حد بيجبرك على حاجة؟"

باغتها السؤال، فقالت محاولة التظاهر بالثقة : "لأ خالص"

ـ "طيب مافكرتيش تشتغلي في حاجة تانية؟ ما تيجي في الشركة عندي؟"

ـ "لأ مش هينفع، أنا زي ما انت شايف"

ـ "كلامك مش مقنع، يعني إنتي كدة مرتاحة؟"

ـ "أنا حاسة إني في امتحان، إيه كل الأسئلة دي!؟ ما تقوليش إنك جايبني من القاهرة علشان تسألني بس، أنا تحت أمرك اعمل فيا اللي انت عاوزه"

ضغط أسنانه بغيظ:

ـ "بجد فيه ناس ماتستحقش الاهتمام!"

ـ "قلت لك يا (نادر) بيه أنا بنت غلبانة، ولو عرفوا إنك بتسألني كل الأسئلة دي مش هيودوني عندك تاني"

أمسك بشعرها بقوة، ففكت يده تبعدها في ألم، فقال في حدة:

ـ "كفاية لعبة القط والفار!"

أشاحت بوجهها، فاقترب منها، وباغتها بقبلة طويلة، أحست لأول مرة بالكهرباء تسري في جسدها:

ـ "إنت عاوز مني إيه!؟ واشمعنى اخترتني بالذات تلعب معايا اللعبة دي!؟"

ـ "لأنك مختلفة"

ـ "أنا زيي زي البنات اللي بتنام معاهم كل يوم"

ـ "إنتي مش زيهم، وإنتي عارفة كده كويس لكن بتكابري.. أو فيه حاجة خايفة منها"

تحرك ناحية الشباك، أزاح الستار قليلًا:

ـ "و(مصيلحي) ده هو اللي بيحرسك، طيب ليه ما سابكيش لوحدك؟"

لم تجبه، فأردف:

ـ "طيب بصي.. قوليلي اسم المكان، وأنا أوعدك مش هيحصل لك حاجة"

أمسك بكتفها، ثم همس في حنان:

"(رزان) أنا عاوز أساعدك، خليني أحس إني عملت حاجة كويسة مرة في حياتي"

ترددت، وهي تنظر إليه في تخبط:

"(نادر) أرجوك.."

"(رزان) دي فرصتك الوحيدة، يمكن ربنا بعتني ليك"

أجابت في تردد:

ـ "فيلا في الهرم، آخر واحدة قبل ميدان الرماية"

أردفت:

ـ "هتعمل إيه؟"

ـ "مالكيش دعوة، أنا وعدتك إنك مش هتتأذي، أسبوع وأوعدك هيكون فيه مفاجأة"

أخرج ورقة، وكتب فيها رقم هاتفه:

ـ "لو عرفتي تتكلمي في أي يوم ابقي كلميني، التليفون ده معايا على طول"

ـ "أنا قلت لك معنديش تليفون!"

تنهدت، ثم تابعت:

ـ "أرجوك يا (نادر)، إحنا حياتنا صعبة، وممكن نتأذى بسهولة، أرجوك"

ضمها إلى صدره في حنان:

ـ "ماتخافيش يا (رزان)"

ارتمت في حضنه في استسلام، وهي تبكي. لا تدري ماذا ينتظرها، تخلط في طيات صدرها مشاعر خوف ممزوجة بترقب وأمل.

*****

تحركت القلعة السوداء بجانب الملك الأسود لتكون تحت حمايته، فما كان من الوزير الأبيض إلا أن عاد بجانب حصانه مهددًا الملك الأسود.. كش ملك.

*****

ـ "ألو... أيوة يا (أبو العينين)".. قالت (سلوى) متحدثة في هاتفها المحمول.

ـ "أنا عاوزاك تيجي معانا، إيه رأيك؟ الشغل هنا أحسن ومحتاجينلك"

ـ "..............."

ـ "لا ممكن تمسك مكان (مصيلحي)، هو كبر والحشيش خلاص كل دماغه"

ـ ".............."

ـ "فلوس كتيرة أوي، أضعاف اللي بتعمله، إحنا محتاجين خبرتك"

ـ "..............."

"هتشتغل معانا طول الأسبوع وتروح في نهايته"

دخل (مصيلحي) فجأة، حين أغلقت الهاتف بارتباك:

ـ "فيه حاجة يا (مصيلحي)!؟ انت هنا من إمتى!؟"

ـ "ليه كده يا ست (سلوى)!؟ طول عمري خدامكم الوفي، وجازفت بحياتي كذا مرة علشان خاطركم"

ـ "(مصيلحي).. انت مش فاهم.. إحنا محتاجين وجوه جديدة وانت بقى عليك العين، وبعدين انت هتمسك شغلانة تانية مهمة معانا.. مراقبة البنات مع (نمر)"

ـ "هتخليني حارس قاعد في البيت بعد ما كنت دراعك اليمين!؟"

رفع ذقنه في حركة تحسر:

ـ "يا مدام إنتي عمرك ماقلتيلي كلمة حلوة أو ادتيني زيادة زي ما غيري بياخد، ومع ذلك ماتكلمتش واستحملت معاكم علشان ظروفي، انتي عارفة إن بنتي الوحيدة عندها السكر ومحتاجة مصاريف جامدة كل شهر، أنا مستعد أمسكلك كل حاجة، الحسابات والتوصيل وكله و.."

قاطعته في تأفف:

"ده قرار وانتهى يا (مصيلحي)، والبيزنس مافيهوش مجاملات، الشغلانة دي محتاجة حد مفتح وانت الحشيش كل دماغك، وياريت ما تناقشني تاني في قراراتي، أنا هنا المديرة الفعلية.. وبعمل الأصلح للجميع.."

أردفت بلهجة آمرة:

ـ "سلم حاجاتك ومفاتيح العربية واستلم شغلانتك الجديدة"

ـ "ياست هانم..."

قاطعته: "انتهى!"

أخفض برأسه في حنق وأسى حاول جاهدًا إخفاءهما، فكر بحاله وكيف تم بيعه بأبخس الأثمان بعد أن قضى عمره في هذا المكان.. "أد إيه كنت غبي!!".. ظلت تدور هذه الجملة في رأسه، كان يعلم أنه ليس هناك قوة يمكن أن تغير رأي (سلوى)؛ فقد ألف شخصيتها وعنادها وحسمها. تنحى جانبا ينظر إليها، بينما تظاهرت بالانشغال.

*****

إنّ أكثر أهل الأرض ممن عرفتُ لا يفكرون إلا بالضربة القاضية... الصفقة التي ستجعلهم أثرى الأثرياء، أو بيت الشعر الذي يُطعمون به روايتهم فيرفعهم إلى مرتبة الأدباء، أو تلك الوصفة التي تجعل الرّجُل سيد الأقوياء، أو الحبّة التي ستكتبه يومًا من النّحفاء. أو ذلك العمل الديني الذي سيرفعه إلى درجة الشهداء، أو ذلك التشخيص الذي يترقّبه ليجعله بين أترابه خير الأطباء، فعدمنا بذلك كل مصدر للسعي، وركنّا إلى أسباب العجز والكسل، والحجج والأعذار، والإهمال والتقصير، وضاعت الأوقات والفرص، وجرت رياح العمر حاملة أسباب الفشل، ووهنت استقامة العظم، ولاح فقدان الأمل.. كل ذلك وهم ينتظرون الضربة القاضية.. ولو أنّهم سعَوا فيما لديهم من قليل، وسلكوا ما وجدوا أمامهم من سبيل، وجمعوا نقاطهم رويدًا كالملاكم في حلبة السباق، لكان خيراً لهم وأنفع، ولأدركوا غايتهم ومقصدهم، وما ندموا ولا تحيّروا، ولفهموا مغزى الكلام حين قرؤوا "خير الأعمال أدومها وإن قلّت".

*****

أمام مصنع الخيش، بالقرب من مدينة حلوان، خرج الحاج (زكريا) يلبس جلبابًا بنيًا فاتحًا، وتزين رقبته كوفية رمادية وعمامة صعيدية بيضاء، يقف على يمينه رجل قوي البنية كرجال لعبة كمال الأجسام، وعلى الجانب الآخر يقف رجلان آخران بثياب صعيدية قاموا خصيصًا لحمايته.

خرج السائق يفتح الباب للحاج (زكريا) الذي كان مبتسمًا في تعال وشموخ كنجوم السنيما.

بالقرب منهم في مقابل المصنع، كان يرقد رجل صعيدي مقطب الحاجبين، متين البنية، جلبابه أزرق باهت وعمامته بيضاء متعرجة، تفوح من طياته

رائحة الغيظ والانتقام، يمسك بندقية قصيرة يعرفها أهل الصعيد، وبجانبه رجل نحيف صغير الوجه كأنه لم يكتمل.. وقف يشير إلى الحاج (زكريا) مخاطبًا الرجل البدين:

ـ "هووا ده الحاج (زكريا).."

ـ "أيوة.. عارف السحنة ده"

قالها الرجل البدين، وهو يخرج من جيبه حزمة نقود:

ـ "دول ألف جنيه.. اتكل على الله انت"

صوب بندقيته ناحية الحاج (زكريا)، وقد امتلأ وجهه بابتسامة صفراء:

ـ "النهاردة فرحك يا (أدهم) أخوي وفرح نجع حمادي كلها، اعرف يابوي إن عيلة النجعاوية والطراونة لسة باقي فيها رجالة، ياخدوا بالطار ويمسحوا العار"

دقق التصويب على الحاج (زكريا) الذي هم بركوب السيارة المرسيدس السوداء، أطلق رصاصات متتالية.. استقرت إحداها في قلب الحاج (زكريا) وأخريات في معدته وبطنه.... تناثرت الدماء ووقع الحاج (زكريا) على الأرض متألمًا يمسك بطنه وقلبه في وسط ذهول من حراسه، حين أخرج الحارس ذو البدلة السوداء مسدسه، وأطلق طلقات تجاه المصدر أوقعت الرجل البدين صريعًا.

ساد السكون للحظات حاول فيها الحراس استيعاب ما يجري، اتضحت معالم الموقف.. إلا أنها اتضحت بعد أن انتهى كل شيء.. وانتهى الحاج (زكريا).

*****

لا يستطيع الفريق الأسود أن يحمي ملكه من حركة الكش ملك بإخراج وزيره الأسود أمام ملكه؛ لأن ذلك يعني ببساطة موته بالحصان الأبيض، فما كان منه إلا أن أعاد فيله الأسود، ليكون أمام ملكه يحميه.

*****

وصلت الأخبار إلى (سلوى) و(مصيلحي)، ارتعدت فرائس (سلوى) بعد أن أدركت نقص الحماية عنها، أما (مصيلحي) فقد كتم فرحة مغمورة تفوح بروح شريرة بعد أن علم مقتل من أساء معاملته وحقر من شأنه، كتمها في قلبه وتظاهر بالحزن التام.. وذرف عليه دموع التماسيح.

(سلوى):

- "حضروا حاجاتكم يا بنات.. إحنا هنغير المكان.."

كانت تدرك أن الوضع لابد أن يختلف، وأن موت الحاج (زكريا) يعني تغيير بعض عناصر الخطط، أدركت أنها بحاجة إلى بديل تعتمد عليه اعتمادًا كليًا.

انكسر شيء ما في نفس (رزان) وهي تعد حاجاتها، لقد انقطع الأمل الأخير في نجاتها، كانت تعلم أن (نادر) قد أخذ العنوان لهدف ما.. لا تدري ما هو بالضبط، لكنها متيقنة أن فيه نجاتها وخلاصها من هذا العالم الفاسد.

غادروا جميعًا الڤيلا إلى فيلا جديدة في مدينة السادس من أكتوبر.. لتبدأ سلسلة جديدة... سلسلة لا تنتهي.

*****

توقفت سيارة الشرطة أمام فيلا الهرم، خرج الحارس الضخم من الباب الخارجي حيث كلمه الضابط:

- "الفيلا دي بتاعة مين؟"

- "بتاعة الأستاذ (أحمد مختار)"

- "وهو فين؟"

- "مسافر طول السنة في الأردن، بيشتغل في البترول.. عقبالك.."

دخل العساكر يفتشون الڤيلا في حين أخذ الضابط يطالع الأوراق والعقود الخاصة بالفيلا، كل الأوراق كانت سليمة، أكدت صحة كلام الحارس قبل أن يخرج العساكر بعد تفتيش دقيق:

- "مافيش حاجة يافندم "

الضابط للحارس:

- "ما شفتش أي نشاط غريب في الڤيلا أو حد من الناس المشبوهين بيجيها.. بنات مثلا؟"

- "لا يافندم الڤيلا عمر ماحد دخلها من ساعة ما (أحمد) بيه سافر، وبعدين بنات إيه؟ البيه بتاعنا راجل بتاع دين.. ده حاجج بيت الله أربعتاشر مرة.. أستغفر الله العظيم.."

- "طيب لو شفت حاجة ابقى بلغنا.."

- "طبعًا يا سعادة البيه.. إحنا في خدمة البوليس.."

انصرف الضابط، وشكر الحارس.

رفع جهاز اللاسيلكي:

- "(علاء) بيه.. مافيش حاجة.. الڤيلا فاضية والورق سليم".

صرخت (سلوى):

- "في حد بينا خاين، أكيد مننا، اشمعنى البوليس جه الڤيلا في الوقت ده بالذات!؟ أنا مابقيتش عارفة راسي من رجلي، مين ممكن يعمل كدة؟ البنات ممعاهمش تليفونات، ومابيخرجوش إلا معانا بالذات، أنا شامة ريحة غدر من حد فيكم.. نهايته هتكون على إيدي"

نظرت إلى كل من حولها في شك كأن كل من حولها تحول عدوًا لها، أدركت حجم خطورة الأمر، كان ينبغي عليها إكمال ما بدأت، بأي طريقة وبأي ثمن.

*****

الفصل السادس

"لو رأيتَ الجميع ضدك، والألوان غير لونك، والكل يمشي عكسك، لا تتردد في أن تمشي وراء قلبك، وتتمسك بمبادئك، ولا تأبه لهم حتى، ولو أصبحت وحيدًا؛ فالوحدة أفضل من أن تعيش عكس نفسك لإرضاء غيرك"

جبران خليل جبران

اعتلت تصفيقات الحاضرين بعد وصلة من الرقص المتواصل، انتهت كالعادة بليلة كباقي الليالي، سئمت لها (رزان) حياتها، وصار العمل أقرب إليها من جرعة دواء مر تتجرعه، فلا يزيدها إلا مرضا، خرجت مرة باكية صارخة تركض إلى (سلوى) التي كانت جالسة في الصالون تنتظر البنات كالعادة وتقبض أثمانهن.

- "عاوز يعمل معايا حاجات صعبة، وبيضربني، ده أكيد مجنون"

نظرت إليها ببرود خلا من العواطف، ثم حولت نظرها إلى الرجل الذي خرج بملابسه الداخلية واقفًا على الباب ينظر إلى (سلوى).

- "زي إيه؟"

اقتربت (رزان) من أذن (سلوى)، وهمست فيها.

زاد (سلوى) الكلام غيظًا:

- "ادخلي واعملي اللي طالبه منك، ده دافع فلوس كتير"

بكت، وهي تعود إلى غرفة الرجل الذي كانت تعتلي وجهه ابتسامة معروفة... ابتسامة النصر.

*****

الساعة الحادية عشر صباحًا..

تراصت الفتيات أمام (مصيلحي)، مرت بهم (سلوى) تتفحصهم.

- "يلا يا بنات اجهزوا، النهاردة عندنا شغل كتير"

أشارت إلى (وردة) و(رزان) وبنت ثالثة:

- "إنتي وإنتي وإنتي، هتروحوا معانا بدري للتنضيف، شقة مركونة عايزاها فل وفي أقل وقت.. مفهوم؟ الساعة خمسة تكونوا جاهزين.."

دخل (مصيلحي) شقة بدا عليها كأنها لم يمسها ساكن منذ القرون الوسطى، مغمورة بالتراب المتراكم على الزجاج والأخشاب، أضاء لمبة صغيرة، وجلس على أريكة حمراء مملوءة بالتراب غير مهتم بما تطاير منها من غبار، وضع مفاتيح السيارة على طاولة قريبة، وأشعل سيجارة حشيش، ونفث دخانها:

ـ "عايزكم تخلوا الشقة دي فل، كل واحدة هتمسك غرفة، أي واحدة هتعمل حركة مش ولابد هطيرها، فاهمين؟"

جلست (رزان) في غرفة تنظف الأرضيات والخزائن، اقتربت من خزنة خشبية، فتحتها وأخرجت منها أدوات للتنظيف، ليفة خضراء وبعض المنظفات ورش للنمل والصراصير، تناولت الليفة بينما كان مصيلحي منهمكا في تدخين سيجارته، جلست تمسح الأرضيات بكل ما أوتت من قوة، فتحت خزانة أخرى، فوجدت فيها مظروفًا مالبثت أن فضته، لتجد فيه بعض الصور، كانت كلها لـ(مصيلحي) في وضع يبرز فيها عضلاته، وأخرى له على البحر يلبس (شورتًا) أحمر، قلبت الصور فوجدت (مصيلحي) يلبس ملابس عسكرية، ثم تفاجأت بالصورة الاخيرة.. فقد كان (مصيلحي) يحتضن رجلًا على البحر يلبسان كليهما شورت، عاريا الصدر!

قالت في نفسها:

ـ "معقولة (مصيلحي) شاذ!!؟ علشان كده عمره ما حاول التحرش ببنت"

أخذت الصورة وخبأتها، دخلت إلى غرفة (وردة)، ثم صديقتها (فرح)، شاركتهم الصور، فتعجبوا جميعًا، وقفت الفتيات الثلاثة أمام (مصيلحي) شاهرات سكاكين كبيرة حادة، اقتربن منه جميعًا وانهلن بها عليه!!

*****

أفاقت (رزان) في الڤيلا الجديدة من هول هذه الرؤية، وقد تعرق رأسها. لم تفهم طلاسم هذا الحلم الأسود العجيب ولم تحاول أن تفعل.. أثار دهشتها تلك اللذة التي شعرت بها، وتلك النشوة التي تخللت روحها وتركت ابتسامة حريصة لا سبيل لأن ترتسم على شفتيها.. شيء ما في أعماقها أحس بارتياح حين انهال سكينها على قلب مصيلحي. نظرت إلى يديها التي كانت ترتعش، فقطع أفكارها فجأة صوت مصيلحي: "محدش يخرج من أوضته! فيه عندنا ناس". تركهم وانطلق إلى الدور العلوي، حيث استقبل رجلًا جاء بجوال من الخيش:

ـ "بقالك كتير ماجبتش بضاعة يا (أبو العينين)"

ـ "العيون مفتحة اليومين دول يا (مصيلحي)، واضطريت أجيب من عزبة تانية"

تسللت (رزان) لترى ما يدور في الأعلى مجازفة بما قد تواجه من عواقب، نظرت من أسفل السلم إلى الرجل ذو الجلباب الفلاحي، ارتفع حاجباها ذهولًا حين رأت الوشم على كعب قدمه اليمنى.... لقد رأت هذا الوشم يومًا، يومًا ما كانت صغيرة، تداعت الأفكار إلى رأسها فجأة، لقد كان هذا الرجل مصدر تعاستها يومًا، لا تدري أين ولا كيف.

نزلت، فوجدت (فرح) و(وردة) على الباب.

(رزان): "الراجل اللي برة ده أنا شفته قبل كده، شوفت الوشم بتاعه قبل كده، نفس المكان في نفس الرجل، ونفس اللون، أنا حاسة إني بكرهه مش عارفة ليه. (وردة).. (فرح).. الراجل ده هو اللي جابني هنا مش كدة؟ هو منين؟"

(وردة): "محدش عارف، بيقولوا من الفيوم وبيقولوا من الإسماعيلية"

ـ "أنا عاوزة أعرف، أنا لازم أعرف"

ـ "هتعرفي إزاي؟ هتمسكيه تضربيه؟ ولا هتخلعي ضوافره لغاية ما يعترف؟ يا (رزان) خليكي عاقلة! إحنا مساجين في البيت ده، ضعاف، متقفيش قدام السيل ليشوطك، إلا لو عايزة تموتي بدري"

تركتهما وانصرفت، بعد أن امتعضت لكلام (وردة).

أحست برغبة جامحة في الانتقام، ذهبت إلى غرفتها، وأخرجت من تحت وسادتها مسحوقًا للشاي ممزوجًا ببودرة بيضاء كانت قد اشترته سابقًا، اتجهت إلى المطبخ حيث كانت (بدوية) تعد الشاي للضيف القادم، انتهزت فرصة ابتعدت فيها (بدوية) لتحضر شيئًا من الداخل، اقتربت من الشاي المعد، وأخذت تفكر... تفكر بعمق.

بعد لحظات، دوت صرخة في المكان، كان فيها (أبو العينين) يتأوه ويتلوى، صرخت (سلوى):

ـ "(أبو العينين)!! فيه إيه!؟"

نظر إليها، ولم يجبها، ظل يتلوى كالأفعى الجريحة إلى أن وقع على الأرض، وقد جحظت عيناه، وهو يمسك ببطنه.

جاء (نمر)، وأمسك به ووضع أذنيه على موضع قلبه:

ـ "ده مات يا ست هانم!!"

اتسعت حدقتا (سلوى):

ـ "إزاي؟ ده كان كويس.. ده أكيد مسموم.. بس إزاي!؟"

نظرت للجميع حولها:

ـ "مين اللي عمل الشاي!؟"

(بدوية): "أنا يا ست هانم، شاي عادي أحمر من أبو فتلة وحياتك!"

- "يعني إيه؟ مات لوحده!!!؟"

قال (نمر): "إيه العمل يا ست هانم؟"

صرخت: "محتاجة أقولك!!؟ اخفي الهبابة ده من هنا، وإياك حد من البنات يشم خبر"

حمل (نمر) جسم (أبو العينين)، ودخل به قبو الفيلا، بينما نظرت (سلوى) إلى (مصيلحي):

- "عاوزاك في الأوضة يا (مصيلحي)"

بلع لعابه، ودخل معها الغرفة:

- "(أبو العينين) مات إزاي يا (مصيلحي)!؟"

- "معرفش يا ست هانم.. أنا اتفاجئت زيك"

- "انت هتستعبط!؟ مين له مصلحة في موت (أبو العينين)؟ يظهر إني أسات التقدير والثقة فيك!"

- "والله يا ست هانم ماعرف حاجة عن الموضوع ده، أنا كنت معاكم فوق"

- "مين اللي دل الناس في الصعيد على مكان الحاج (زكريا)؟ مين اللي سافر فجأة للصعيد، تقدر تقولي؟"

- "يا ست هانم.. أمي كانت تعبانة، واسألي أهل البلد، وأنا معرفش الناس بتوع الحاج (زكريا) أصلًا.. الصعيد كبيرة، وهو في مكان غير مكاني"

- "كنت بتعمل إيه في أوضة الدكتور لما شفتك!؟"

- "قولت لك يا ست هانم كان عندي صداع، وبدور على برشام للصداع"

صرخت منادية: "(حازم)!!"

جاء (حازم) بالـ(بالطو) الأبيض:

ـ "أيوة يا ست (سلوى)"

ـ "فيه حاجة ناقصة من شنطة الدواء بتاعتك؟"

ـ "ما دورتش يا ست هانم"

ـ "طب مستني إيه؟ دور!"

عاد إليها بعد لحظات:

ـ "بودرة سيانيد البوتاسيوم"

ـ "السم؟"

ـ "أيوة.. كنت مخليه للحالات اللي لازم نخلص منها"

ـ "بتاع الحوامل!؟"

ـ "أيوة يا ست (سلوى)، هو فيه إيه!؟"

نظرت إلى (مصيلحي) في غضب:

ـ "ما كنتش أعرف إن الشر والحقد ماليك من جوة، أنا مش عارفة إزاي كنت مطمنة لك الفترة اللي فاتت!"

ـ "والله يا ست هانم ما ليا دعوة بالكلام ده، القتل مش في قاموسي، يمكن بعمل بلاوي تانية، لكن قتل لا"

ـ "ابقى قول الكلام ده لإبليس في جهنم لما تقابله"

قالتها، وأشارت إلى (نمر) الذي طوق (مصيلحي) من خلف ظهره.

ـ "يا ست هانم، أنا عندي عيال وبنتي عيانة، حرام عليكي، ده أنا طول عمري خدامك، لو كان عندك كلب ماكانش هيكون بالوفاء اللي كنت فيه"

أشارت إلى (نمر):

- "خده في الأوضة ١٣، اسحب منه كل الاعترافات الممكنة بطريقتك.. مش هوصيك، وقبل ما يطلع الفجر تخلص عليه، عاوزة الموضوع يتم من سكات، مش عاوزة شوشرة أو أي حد من البنات يحس"

صرخ: "يا ست هانم! حرام! والله ده حرام!"

تلقى ضربة من النمر على رأسه من الخلف بعصا تشبه عصا الشرطي، غاب بعدها عن الوعي.

*****

الساعة الثالثة ليلًا..

أفاق (مصيلحي) فاتحًا عينيه ببطء، كان فمه مكممًا بشريط لاصق أبيض، ويداه معلقتين في حديدة تتدلى من السقف، وقدماه مقيدتين في غرفة حالكة الظلام، فتح باب الغرفة فجأة، تنهد (مصيلحي) رعبًا، علم أنها اللحظات الأخيرة في حياته، علم أن (النمر) جاء لينهي المهمة، نطق الشهادة وقد أغمض عينيه، أضيئت لمبة صغيرة بجانبه، كانت (رزان) تقف أمامه ناظرة إليه، صاح بصوت كتمه الشريط اللاصق، هل جاءت لتنفذ حكم الإعدام قبل موعده؟ لا عجب، فما فعله في حقها لا يمكن إحصاؤه، خاصة بعد ما أراها من نفحات العذاب وألوانه ما لا يمكنها نسيانه، رفعت السكين أمام وجهه واقتربت منه ببطء، ازدادت صرخاته المكتومة قبل أن تقرب السكين من حبال يده وتقصها، وقع على الأرض، فتح عينيه ببطء لا يصدق أنه لا زال على قيد الحياة، أدخلت سكينها بين قدميه وقطعت الحبال التي تربط قدميه ببعضها، ثم أزاحت الشريط اللاصق من على فمه:

- "(رزان)!!!؟"

أشارت إليه أن أخفض صوتك:

ـ "(نمر) مش هيصبر عليك أكتر من كده، اجري بسرعة!"

أوقفها قائلًا:

ـ "ليه ماقتلتنيش!؟"

ـ "مش هينفعني بحاجة قتلك"

ـ "(رزان) إنتي بنت عظيمة"

أدارت وجهها، وهمت بالانصراف، فاستوقفها قائلًا:

ـ "أنا مديون لك بحياتي"

أخرج من جيبه تليفون قديم الطراز وشاحن صغير:

ـ "اسمعي.. خلي ده معاكي، رقمي متسجل أول رقم، خلي بالك لو شافوه معاكي يبقى كتبتي نهايتك بإيدك، خليه دايمًا في وضع صامت، وابقي كلميني"

أخذت التليفون، ودسته في حمالة صدرها، قبل أن ينطلق (مصيلحي) فارًا من المكان... بأقصى سرعة.

*****

الساعة الرابعة قبيل فجر نفس اليوم:

فتح نمر باب غرفة ١٣ ممسكًا بحقنة في يده، يغني أغنية مسلسل ليالي الحلمية، أضاء نور الغرفة، لم يلبث أن تسمر مكانه.. فاجأته الحبال المقطوعة والملقاة في الأرض دون (مصيلحي)، تحرك راكضًا في أنحاء الغرفة، ثم خرج يبحث بنظرة سريعة في البيت كله قبل أن يخرج هاتفه المحمول:

ـ "أيوة يا ست (سلوى).. (مصيلحي) هرب.. أنا جيت مالقيتوش.. حد فك له الرباط وساعده"

في الطرف الآخر من التليفون كانت (سلوى) ترقد على سريرها بجانب (حسن) الذي علا شخيره:

ـ "إيه؟؟ يعني إيه!!؟ وإزاي ده يحصل!؟ انتو كنتم فين!!؟ إنتم أكيد اتجننتم، حتى حراسي مش قادرة أعتمد عليهم، أنا جاية حالًا"

غادرت تقود سيارتها في جنون.. لقد فقدت الثقة في الجميع، هل ينبغي عليها أن تفعل كل شيء بنفسها؟ أم أن الزمن بدأ يعقبها ويتحين لحظات الغدر.

صرخت في (نمر) الذي يقف أمامها ذليلًا في الفيلا:

ـ "يعني إيه هرب؟ ومين اللي ساعده!؟"

تحرك (نمر) و(سلوى) إلى غرف البنات اللاتي كن يسكن في نوم عميق، فتحت باب غرفة (رزان) و(وردة) و(فرح) فوجدتهم مستغرقين في نومهم، تفحصت غرف الفتيات الأخريات فلم تجد ما يوحي بشيء، خرجت متسائلة في عجب: "أمال مين اللي عمل كده، انت لازم تدور عليه.. بأسرع ما يمكن"

ـ "حاضر يا ست هانم"

حك ذقنه قليلًا، ثم تابع:

ـ "تفتكري يا ست هانم هيورطنا؟"

ـ "ماعتقدش.. ده عليه بلاوي، ومش من مصلحته ينبش في خرابه"

نظرت في الفراغ:

ـ "يا ترى مين هنا خاين في وسطنا!؟"

مرت ثلاثة أيام من رحلة البحث عن (مصيلحي).. اختفى فيها كفص ملح ذائب قبل أن تنهار حماسة (نمر) في البحث عنه بعد أن أسقط في يده، وقفت (رزان) بالقرب من نافذة مفتوحة تنظر وتفكر بعمق، قبل أن تقترب منها (فرح):

ـ "أنا شوفتك وانت بتخرجي بودرة من شنطتك، إنتي حاسة إن (أبو العينين) كان فعلًا يستحق القتل؟"

نظرت إليها (رزان) في تعجب ممزوج بخوف:

ـ "أنا ماقتلتوش"

ـ "ماتخافيش إحنا كلنا هنا في الهوى سوى وهو يستحق اللي حصله"

ـ "أنا كان نفسي أعرف هو مين وجه منين بس؟ كنت حاسة إني ممكن أعرف أصلي وفصلي منه، لكن ما قبل ما أعرف.... مانكرش إني فكرت في إني أخلص منه بس ما قتلتوش"

قاطعتها:

ـ "أنا لو مكانك كنت عملت كده"

ـ "أنا ماقتلتوش يا (فرح).. إنتي مصدقاني؟"

ضحكت (فرح) في جدل:

"أمال مين اللي قتله يا (رزان)، هو أنا عدوتك؟"

أخذت (رزان) تنظر شاردة تلاحقها أعين (فرح).

قطع أحد الحراس كلامهما فجأة:

ـ "حد معاه سجاير؟"

أشارت (فرح) إلى علبة دخانها:

"خد اللي انت عاوزه"

نظرت (فرح) إلى (رزان)، وساد بينهما الصمت.

*****

في الاجتماع السنوي للجنة حقوق المرأة التي كانت (مديحة السيد) عضوًا فعالًا فيها.

أمام جمع من الصحفيين تحدثت في الميكروفون:

- "حقوق المرأة جزء من حقوق الإنسان، بتبدأ من صغرهم، من أيام قليلة بعد ولادتهم، مش كلام وشعارات بنرددها، دي عهود لازم تحترم زي حقوق الحيوان اللي الكل بيهتم بيها وسايب ابن آدم.. الحيوان في الحقيقة حقوقه محفوظة، الناس بتشتريه وتخاف عليه وبتطبطب عليه وتدلعه.."

عرضت على (البروجيكتور) بعض الصور لفتيات الشوارع:

- "مين هيلمهم؟ ومين هيخلي باله منهم؟ دي مثلا اللي في الصورة بنت مشردة قابلتني في لجنة حقوق الإنسان السنة اللي فاتت، ماشافتش أهلها من يوم ما وعيت على الدنيا، وبالتحريات ومساعدة الجهات المختصة قدرنا نرجعها لأهلها، وشوفنالها وظيفة كمان.."

كان الحاضرون ينظرون إليها باهتمام، فتابعت:

- "مين يحفظلهم كرامتهم؟ ومين هيرضى يشغلهم بعد كده بماضيهم إذا إحنا مهتمناش بيهم!؟ اللي قابلتهم بيشتغلوا في الشوارع، بياعين ورد وبياعين هوى، رقاصات وحرامية، تفتكروا دي غلطة مين؟ غلطة المجتمع كله طبعًا.. اكتبوا مقالاتكم بأمان وحرية، واعرفوا إن دوركم مايقلش عن دور الأهالي والمدارس..."

صفق الحاضرون تصفيقًا حادًا لها، وهي تبتسم في شموخ. غادرت مكانها لتتمشى في ردهة الفندق الذي عقد فيه المؤتمر تربت على أكتاف بعض زميلاتها، قبل أن يستوقفها ضابط بالزي العسكري يخلع قبعته:

ـ "مدام (مديحة) لحظة من فضلك"

نظرت إليه في شك قبل أن يتابع:

ـ "ممكن اسأل حضرتك سؤال؟ مش هاخد من وقتك كتير"

تظاهرت بالتململ:

ـ "أنا بس وقتي ضيق.. و..."

قاطعها: "مش هاخد من وقتك كتير.."

ـ "فيه فيلا في الهرم في ميدان الرماية، عندنا فيها قضية مفتوحة، فيه شهود عيان بيقولوا إنهم شافوت حضرتك هناك أو في مكان قريب منها"

ـ "فيلا إيه!؟ أنا معرفش حد في الهرم، أنا ساكنة في الزمالك"

ـ "فيلا جالنا بلاغ إنها مشبوهة، كنت عاوز أسأل حضرتك إذا كنتي رحتي هناك؟"

ـ "وهروح هناك أعمل إيه!؟"

ـ "الشاهد قال إنه شاف عربية حضرتك كانت هناك قبل تفتيشها بكام يوم.. نفس الأرقام والموديل"

ـ "انت متأكد إنه كان بيتكلم عني أنا!؟ أكيد فيه غلط"

ـ "ماهو ده اللي أنا جاي اسألك عليه، الأرقام اللي معانا مطابقة لأرقام عربيتك"

ضحكت باستهزاء:

ـ "لا أكيد فيه غلط في الأرقام، انت عارف رقم أو رقمين ممكن يفرقوا"

ـ "ممكن يكون الوقت مش مناسب، تحبي أعدي على حضرتك في وقت تاني؟ في المكتب أو في البيت مثلًا؟"

اندفعت قائلة:

ـ "اللي هقوله هنا هو اللي هقوله في المكتب، ده كل معلوماتي، أنا مش فاكرة إني كنت في المكان ده أصلًا، أكيد انت عارف إن واحدة في مركزي مش هتروح للأماكن المشبوهة دي.. مش كده!؟"

ـ "طبعًا.. طبعًا.. إحنا بس بنسأل"

ـ "على العموم سيبلي رقم تليفونك، وإذا افتكرت حاجة أكيد هبلغك"

أخرج ورقة، وسجل رقم هاتفه:

ـ "اسمي الضابط (علاء)"

نظرت إلى الورقة، ووضعتها في حقيبتها، وأدارت ظهرها ماضية في طريقها.

قال: "حوار ممتاز.. شكرًا ليكي يا مدام (مديحة)"

حيته بابتسامة باهتة، وانصرفت، ووجهها يتلون بألوان الطيف.. من فرط المفاجأة.. أما الضابط، فظل يتابعها في نظرات صامتة.

*****

أفاقت (رزان) أرقًا في غرفتها. تحركت من على سريرها قبل أن تذهب إلى قرب الشرفة لتجلس على كرسي خشبي تتأمل، سحبت (وردة) كرسيًا آخر بعد أن غلبها الأرق، وجلست بجانب (رزان) تتأمل الصورة المعلقة على الجدار.

(وردة):

- "سمعت إن الراجل بتاع الوشم من الإسماعيلية أو من قرية قريبة منها"

- "معقولة؟ عرفتي منين!!؟"

- "سمعت (سلوى) بتقول له: (مجايبك خفت.. هو الإسماعيلية واللي حواليها مابقوش يخلفوا بنات؟)"

- "يعني ممكن يكون أنا أو إنتي من هناك، تعرفي إيه تاني؟"

- "محدش عارف، على العموم خد اللي يستحقه، الموت للناس ده أجمل هدية ممكن نقدمهالهم"

اتسعت حدقتا (رزان):

- "إنتي اللي قتلتيه!؟"

قالت (وردة) دون أن تنظر إليها:

- "أنا نفذت اللي كان في عينيكي"

- "طيب ليه ما استنتيش نعرف عنه أكتر!؟ كان ممكن يدلنا"

- "الفرصة مابتجيش غير مرة.. وأنا مشفتوش جه هنا غير قليل"

- "لكن أنا كنت عاوزة.."

قاطعتها (وردة):

- "متكدبيش على نفسك.. إنتي كان نفسك تعمليها وخايفة، أنا حققت مرادك في نفسك ومراد ربنا في الأرض.."

- "إنتي اللي خدت الدوا من شنطة الدكتور!؟"

- "كان لازم طريقة ماتسيبش أثر ولا فرصة يصحى تاني"

(رزان):

ـ "خايفة؟"

ـ "آه بس مش منه"

ـ "أمال من إيه!؟"

ـ "أنا حامل"

ـ "إيه!!؟.... إنتي هتودي نفسك في داهية، إنتي عارفة ممكن يعملوا فيكي إيه؟ إنت لازم تخلصي من اللي في بطنك بسرعة"

ـ "لو نزلته دلوقتي هموت"

ـ "ولو استنيتي هتموتي بإيديهم"

ـ "أنا ماليش نصيب في الحياة من الأصل"

ـ "مش إحنا اللي بنختار حياتنا"

ـ "أديكي قلتيها مش إحنا اللي بنختار حياتنا"

نظرت إليها (رزان) في إشفاق:

ـ "(وردة) أرجوكي"

ـ "ماتقلقيش عليا، فكري إزاي هتخلصي من العيشة دي، إنتي مش لازم تموتي هنا"

ـ "وأنا بإيدي أعمل ايه!؟"

"معرفش لكن لازم تتصرفي"

أخرجت من جيبها كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا، به بودرة رقيقة وضعته في يد (رزان):

ـ "ده كلوريد البوتاسيوم، جرعة صغيرة منه كفيلة تموت راجل ضخم"

تناولته (رزان) في ذعر:

- "(وردة).. أنا خايفة"

"إنتي بإمكانك تكتبي صفحات حياتك بنفسك، الحياة صحيح مكتوبة، لكن إحنا ممكن نغير فيها"

دسته (رزان) في جيبها:

- "(وردة)... أنا خايفة عليكي"

*****

مرت ثلاثة أشهر، ازداد فيها حجم بطن (وردة) حتى لوحظ حملها لمن يراها، قبل أن تقوم (سلوى) بعزلها في غرفة منفردة، دخلت عليها (رزان) ذات يوم خلسة، فوجدتها تبكي بكاء مريرًا، مسحت على رأسها قائلة:

- "أنا هخرجك من هنا، أنا هعمل أي حاجة.."

أرادت (وردة) الصراخ بما تحوي نفسها من ألم، وضعت حينها (رزان) يديها على خدها، وقامت تغني، وهي تصارع الدموع، وتملس على شعر صديقتها، قبل أن تدخل (سلوى) الغرفة فجأة مشيرة إلى (نمر) إشارة فهمها.

انتزع (نمر) (وردة) من سريرها فجأة، وهي منهمرة في بكائها، حاولت (رزان) منعه، فرفع السكين في وجهها محذرًا.. جلست تصرخ كالمجنونة وهي ترى (وردة).. أعز صديقاتها تحمل على أكتاف ذلك الوحش البشري إلى مصير ليس بالمجهول.. دقائق مرت في بكاء انتهى بعدها صراخ (وردة) إلى الأبد.

*****

بعد مرور سبعة أيام...

"إنتي مش هتنزلي الشغل!؟ إحنا صبرنا عليكي كتير"

صاح (نمر) في وجه (رزان).

(سلوى): "سيبها يا (نمر)!"

وجهت كلامها لـ(رزان):

ـ "أنا عارفة إن (وردة) كانت صاحبتك جدًا، هنديكي كام يوم ترتاحي فيهم لغاية ما تفوقي وبعدها تنزلي الشغل، خدي بالك إحنا مش هنستنى كتير، إحنا مبنصرفش على حد مبيشتغلش"

نظرت (رزان) لأول مرة بحدة إلى (سلوى)، والدموع تعتصرها:

ـ "موتيني... دلوقتي لو عايزة.. أنا مش عاوزة أشتغل.. أنا كرهت حياتي.. لو هتموتيني يلا خلصيني، ما إحنا واحدة ورا التانية هتموت مش كده؟"

اقتربت من (سلوى) في حدة، قبل أن يحتجزها (نمر) بيديه الغليظتين، ضغط على فكها بقوة كاد يكسر فيها عظام فكها السفلي.

قالت (سلوى): "هدوها شوية!"

نادى (نمر) للطبيب الذي أخرج حقنة مهدئة من حقيبته، وحقنها في ذراع (رزان).. أخذت تصرخ وتبكي، وتباطأ بكاؤها إلى أن هدأت.. تمامًا.

وضعها (نمر) في سريرها، وأغلق الغرفة، فتنهدت (سلوى) التي بدأت الأحداث تفقد سيطرتها من قبضتها.

*****

إنّ من الأصدقاء من حُفر له مكانٌ في قلبك حتى أنّك لتشتهي منه كلامًا أو سلامًا فلا يُشبعك لقاؤه ولا يطفئ ظمأك حديثه ولو تحدث بمَدّ الكلام ومدد الأقلام.. فيا صاحبة قد غابت عنّا شمسك وزاغ منا قمرك، نهوى حديثك

ونرجو لقاءك.. وننشد حبك.. فلا تحرمينا أجر الطلعة ورفق البسمة ولين المقولة، فما هضمناك حقك ولا أضعناك أجرك.. وما قصرنا بقولنا نحبّك.

إن كان بعدكِ عنا خيراً لك فهو ما نرجوه، وإن كان عتابًا فقد أعييتِنا بقطعك وآلمتنا بفقدك.. فاعلمي يا صديقتي أنا ما أحببناك إلا لأنّنا أحببناك، وما أردنا لك يومًا إلا صلاحًا وإصلاحًا.. ورزقًا وتوفيقًا.. ونجاحًا وإخلاصًا.. فلا تهني ولا تحزني؛ فنحن لا ننتظر لقاء في الدار الثانية، وإن كان هجرك ثقل الجبل أو عدّ النجوم.. فهمناك قبل أن تتكلمي وأعذرناك قبل أن تبرّري وسامحناك قبل أن تسألي... نتمنى أن يجمعنا القدر وإياك.. على صدق ووئام وحبٍ أثبتته لك الأيام.. فسلام منا إليك وصلواتٌ من الرحمن عليكِ..

فإذا قرأتِ كلماتي فاعلمي أنها آخر ما يطّلع عليه قلبُك مني، وما أقرّت نفسي بمحبتي إليك، وخوفي عليك، واشتياقي إليك.. واعلمي أني ما غضبتُ يومًا منك، ولا انتظرتُ محاسبتك.. أو عجبتُ لفجأتك أو فُجعتُ لعزلتك.. إلا أنني أخشى عليك منك.. وأرفق بك عليك.. فها هو قلبي أضعه بين يديك.. ورهن مُدّيك.. فخذيه إن شئت أو أبقه تحت قدميك.

*****

لم يعد في استطاعة الفريق الأسود التمييز؛ أحس أن هناك شيئًا ما يخبئه له الفريق الأبيض، خصوصًا عندما يرى في عينيه تلك الابتسامة الواثقة... ترى ما هو!؟

*****

وقفت (بدوية) تتابع نظافة الفتيات أثناء استحمامهن تنظر إليهم بعيون ثاقبة:

- "بالليفة والصابونة، عايزة الواحدة فيكم بتبرق زي طبق الفضة الأفرنجي، حفلة راس السنة قربت.. هيكون حاضر ناس مهمين من كبار الدولة ومن دول تانية، عايزين شغل نضيف، مش عاوزين غلط"

خرجت (رزان) تلبس فوطة بيضاء تلف بها جسدها، ويتدلى شعرها المبلل، تحركت ناحية غرفتها قبل أن تسمع (سلوى) تتكلم في هاتفها، لم تدرِ ما دفعها من الفضول إلى أن تقترب محاولة التقاط كلمات الحديث:

- "وصلني الشيك يا سعادة الباشا".. أتبعتها ضحكة أنثوية، قالت بعدها: "طلباتك أوامر".. أغلقت الهاتف، ثم نظرت إلى (نمر):

- "شيك بمليون جنيه في البنت المفعوصة دي، مش قلت لك هي اللي هتجيب همها في يوم من الأيام!".. أحست فجأة (سلوى) بالندم بعد أن أخبرت (نمر) بالمبلغ الضخم، ما كان يجب أن يعرف عن هذا الشيك، ربما زادت مطامعه وحسده، جزت أسنانها قبل أن يقول:

- "طيب والفلوس دي كلها على إيييييه!؟"

- "(سعيد) بيه عاوز ياخدها معاه لدبي بعد ليلة راس السنة وأهو نبقى خلصنا من مشاكلها"

- "تفتكري يا ست هانم نقول لها ولا نسيبها تتفاجأ؟"

- "لأ طبعا مش عايزاها تعرف حاجة عن الموضوع ده إلا ليلتها".. ضحكت: "ويمكن بعديها نصفي حساباتنا، العملية بقت خطر أوي"

(نمر): "ولا من شاف ولا من دري"

ضحكت ضحكة شيطانية:

- "عايزاها ماتحسش بأي حاجة، تشتغل عادي وكلم شوقي بتاع الأوراق يحضرلها ملفها، عايزين باسبور وصورة قديمة وشهادة خلو من الأمراض"

ـ "تؤمري يا ست (سلوى)، وحضرتك هتوزعي الفلوس دي على الجميع طبعًا مش كده؟"

ـ "طبعًا طبعًا، ممكن تكون علينا بس يا (نمر)، (مصيلحي) غار والحاج (زكريا) خلع من الدنيا".. قالتها وكتمت في نفسها شيئًا.. شيئًا لم يفهمه (نمر).

ـ "عايزاكم تجهزوها، وتتأكدوا من كشفها الصحي زي ما قلتلك، وماتشدوش عليها الفترة دي لاحسن دي مجنونة وأنا معنديش استعداد أخسر الشيك ده"

"وحاجة تانية: عدي على الموسكي، واشتري كام لبس حريمي خليجي وعربي، الناس طالبة مزاج جديد ليلة راس السنة، مزاج خليجي..."

ضحك، وهو يحرك رقبته:

ـ "ولو طلبوا مزاج موزمبيقي نجيبهولهم يا ست هانم"

اتسعت حدقتا (رزان) مما سمعت؛ كان كالصاعقة التي هوت على رأسها فجأة. كل يوم يمر عليها يخبئ لها الأسوأ... إذا فهذه هي النهاية؟ أحبال النجاة تنسحب من تحت قدميها، إذًا تبقى ذليلة مدى الحياة في بلد غريبة تتضاءل معها فرصتها في النجاة!!

تسللت إلى غرفتها ببطء، أخرجت من حقيبتها الهاتف الخلوي تفقدت عدم وجود أحد يراها، وهي تبحث في الأرقام المسجلة في الهاتف، إلى أن وجدت رقم (مصيلحي)، طلبت الرقم بسرعة:

ـ "ألو أيوة يا (رزان)، إزيك عاملة إيه؟ ماتخافيش أنا فاكرك مش ناسيكي، إنتي كنتي السبب في إني لسة عايش.."

ـ "(مصيلحي).. أنا هيسفروني برة مع رجل أعمال لدبي.. أنا حاسة إني انتهيت"

"لا حول ولا قوة الا بالله! إوعى يكون حد سامعك! اتأكدتي إن مفيش حد جنبك؟"

ـ "أيوة.. بص مفيش وقت.. الحفلة بعد أقل من شهر.. أيوة في رأس السنة"

"طيب عاوزاني أعمل إيه؟ أنا رهن إشارتك، متستغربيش من كلامي، أنا لازم أردلك الجميل، عاوزاني آجي أستناكي بالعربية وإنتي رايحة لزبون وتهربي معايا؟ بس لو حاجة حصلت هنتنفخ إحنا الاتنين"

"لأ.. لو عاوز تردلي الجميل فعلًا تعمل اللي هقول لك عليه"

"تؤمريني يا (رزان)"

أخرجت من حقيبتها ورقة بها عنوان:

ـ "اكتب العنوان ده عندك، ١٣ شارع أبو الفدا، الزمالك، ثم همست إليه اسمع كويس وخلي بالك من اللي هقوله"

*****

أمام مدرسة الكوثر بالزمالك، خرجت (دينا) بزي المدرسة الكحلي اللون تودع أصحابها في انتظار والدها (حسن) الذي اعتاد أن يقلها كل يوم، لمحت عينيها بالصدفة ورقة معلقة على الحائط بجدار المدرسة الخارجي مرسوم عليها زهرة، كان كل ما يتعلق بالأزهار يجتذبها اجتذاب الرحيق للنحلة، لم تمنع نفسها أن تلقي نظرة عليها.. "لدينا زهرة وليام النادرة وأزهار أخرى (نادرة، نباتات منقولة من الخارج ونباتات زرع محلي، فقط حصريًا عندنا، اتصل بنا على الرقم [.........]).

تحركت نفس (دينا) شغفًا شديدًا تجاه ما قرأت، لقد كانت تبحث عن زهرة وليام النادرة لعدة أشهر حتى فقدت الأمل بوجود من يمتلكها في مصر، تلك الزهرة التي ترمز إلى البسالة والبطولة، يعزى تسميتها إلى وليام الفاتح، والتي ذكر اسمها كثيراً في القصص الشعبية الإنجليزية، يرجع أصلها إلى الجبال في جنوب أوروبا.

كانت (دينا) تدخر كل جنيه من مصروفها من أجل شراء النباتات النادرة، لا تصدق أن أحدًا أعلن عنها أخيراً، قطع قراءتها صوت بوق سيارة والدها، أخفت الورقة في جيبها، ومالت على صديقتها (مروة): "هاطلب منك خدمة".. همست في أذنها للحظة، ثم اتجهت إلى السيارة، فتحت الباب الذي بجوار والدها الذي استقبلها بابتسامة، قبل أن تنادي (مروة) من الخلف متصنعة:

ـ "(دينا)!... استني!"

اقتربت من السيارة: "مساء الخير يا عمو"

ـ "مساء النور يا (مروة).. إزي بابا؟"

ـ "الحمد لله".. نظرت بطرف عينها، ثم وجهت كلامها إلى (دينا):

ـ "إنتي هتروحي!؟ مش هتحضري درس مستر (جلال)!؟ ده درس مهم جدًا!"

قالت (دينا) متظاهرة بالتعجب: "والله!؟ أنا كنت ناسية خالص"

(حسن): "درس إيه يا (دينا)!؟ ماقولتيش لمامتك من بدري ليه بدل ما أنزل من البيت!؟"

(مروة): "لا يا عمو الدرس قالوا عنه فجأة، حضرتك عارف حركات مستر (جلال)"

ـ "طيب خلاص (دينا) ممكن تعوضه المرة الجاية.. يلا بينا"

ـ "أوك يا عمو.. على العموم هو هيقول فيه أسئلة الامتحان"

"بجد؟" حك ذقنه: "طيب (رزان) متتأخريش، هيخلص الساعة كام؟"

ـ "الساعة خمسة يا عمو"

ـ "طيب هو فين؟"

ـ "في البيت عند المستر في الدقي، أنا بابا هيوصلنا، وهخليه يرجع (دينا) للبيت"

"طيب، كلميني يا (دينا) لو فيه حاجة"

نزلت (دينا) من السيارة، وغادر (حسن).

قالت (مروة): "إنتي رايحة فين بأة؟ هو في إيه؟"

تحركت بعيدًا تلاحق الوقت، تشير إلى سيارة أجرة: "هقولك بعدين"

ركبت سيارة الأجرة التي سرعان ما انطلقت بها.

*****

وهنا تحرك الحصان الأبيض من مكانه في حركة غير متوقعة.. ليهدد الملك الأسود..كش.. مات!!

*****

اختبأت (رزان) في حمام البنات، وهي تخرج ورقة من جيبها، طلبت رقمًا.

ـ "ألو.."

ـ "ألو.."

ـ "أيوة يا (نادر).. أنا (رزان)"

ـ "مش ممكن! إيه المفاجأة دي!؟"

ـ "إزيك يا (نادر)؟"

ـ "إنتي فين يا بنتي!؟ وحشتيني جدًا.. أنا رصدت الموقع بتاع الڤيلا بتاعة الهرم وبلغت البوليس، بس مالقوش حد في الفيلا؟ إيه اللي حصل!؟ إنتي بخير؟"

ـ "أنا بخير.. أنا بس حبيت أسلم عليك علشان يمكن مش هعرف أشوفك تاني"

ـ "ليه!؟ (رزان) فيه إيه؟ إزاي أوصل لك؟ إنتي فين، أنا مستعد..."

قاطعته: "(نادر)... أنا حبيت أشكرك على إنك إديتني دفعة للحرية وحسستني بإمكانية الحياة، صحيح أنا حياتي كلها غلط، لكن انت كنت السبب اللي دفعني للتفكير في تصحيح كل حاجة.."

ـ "(رزان)، أنا عاوز أقول لك حاجة، أنا برغم إني اتعرفت عليك بالطريقة دي، أنا عارف إن ده جنان، لكن أنا حسيت براحة ناحيتك.. لكن أنا لازم أشوفك"

ـ "خلي بالك من نفسك يا (نادر)، إنت تستحق الأفضل دايمًا. ابعد عن طريق اللعب. انت اللي فعلًا مختلف.. انت قدامك مستقبل باهر.."

ـ "طيب ممكن أشوفك؟ أنا عاوز أتكلم معاكي.. ضروري"

ـ "معتقدش"

ـ "يعني أنا اتكتب عليه كل ما أرتاح لحد يفترق عني!؟"

ـ "إحنا اتكتب علينا نفترق قبل ما نتجمع أصلًا. اللي زيي مش من حقها تحب، سلملي على روحك الحلوة، عاوزة كمان أقول لك حاجة.."

- "إيه؟"

- "انت أول واحد يحضنّي في حياتي ويطبطب عليا، حضنك هيفضل دايماً بين ضلوعي، وفي ذاكرتي كل ما الدنيا تضيق بيا.."

"(رزان)، أرجوكِ ماتقفليش... (رزان)... (رزان)!!"

أغلقت الهاتف قبل أن يكمل كلامه، واعتصرت عينيها في ألم ومقلتها قد أرخت فيضًا من الدموع.

*****

سمعتُ تغاريد (قيس) لـ(ليلى)، وقرأتُ أشعار (جميل) لـ(بثينة)، ورأيتُ فداء (عنتر) لـ(عبلة) فهاجت نفسي بالغرام واشتاق قلبي للقاء.

إلا أنه كانت لي في الحب مسألة.. كلما أراد قلمي أن يخطّ أمرًا أبصرتُ به قد حط ركابه عندها.. وكلما جاء عقلي ليفكّر في حال وجد فيها ما يطفئ بها ظمأه.

بحثتُ عنها في تراث العلماء، وطرقتُ لها أبواب الأولياء.. فوجدتُ أني أطلبُ السمك في الصحراء وأستفتي في الحب رجلًا من الجهلاء، وآملُ الجود من رب الشح والبخلاء.

تكلّموا في الحب بين إسفاف وتقنين، فحينًا وضعوا له قيودًا أضيق من حدود الرّداء، وحينًا تركوا له مجالًا يسبح في بحر الفضاء، فعدمنا بذلك مصادر الإلهام، وأصبح القلب فينا أحد ثلاثة:

قلبٌ ينبذ الحب في وضح النهار، لا يضع اعتبار محبة الجوار، هاب محبة الصديق والأخ والقريب، ونسي الأم وتخلّى عن الأب وهاب الكبير وظلم الصغار.

وقلبٌ هو سُمٌّ يُنفَث بين الضلوع، أراد الحب الزائف وطرق أبوابه جلبًا لنفع أو ردًا لضر.

وثالث قد علم طريق الحب، ووجد ضالته وأدرك محبوبه، ولكنه ظل صامتًا، وخشي البوح والحديث، كما قال القائل:

ولا تزال بحلْقي أَلِفُ مبكية.... من رهبة البوْح تستحي وتضطربُ

وهنا أقنعني القول.. ورضيتُ الحُجّة، فعاهدتُ نفسي أن أُطلق لقلبي العنان.. أرخيت الستار، وأطفأتُ الأنوار، فسمعتُ صوتًا من خلفي يناديني.. " الآن تجود بكلماتك وتفيض بعبراتك؟ أم لم أكن يومًا في قلبك؟" فعاتبتُ نفسي أن لم أَبُح بحبي لمن أحب، ثم نظرتُ إليه لأبادله الحنين... فنُغصَ قلبي وتوقف قلمي.. وجدتُ نفسي أنظر إلى صورة صمّاء، لا كلأ فيها ولا ماء، لا تُغني الجوع ولا تُعطي الهواء.

*****

في يوم الثلاثاء ١٩ ديسمبر:

"(حسن).. أنا مش عاجبني تصرفات (دينا).. دروس فجأة كتيرة وشكلها تعبان وبهتان، تعرف حاجة؟ قالتلك حاجة؟"

ـ "لأ خالص، هي من يوم ما راحت درس مسيو.. مش عارف اسمه إيه ده بتاع الإنجليزي، وهي كل يوم درس في مجموعة في مراجعة"

ـ "أنا مش مرتاحة"

تنهدت، ثم أردفت:

ـ "دي بتدخل أوضتها، وبتقفل على نفسها بالساعات"

ـ "هيكون فيه إيه يعني؟"

ـ "انت بتسألني!؟ إنت مش أغلب الوقت معاها في البيت؟"

ـ "مش المفروض إني أنا اللي آخد بالي منها"

ـ "(حسن)!!!؟ جرالك إيه!؟"

ـ "بلا (حسن) بلا بتاع! جاية دلوقتي مستغربة من تصرفات بنتك!؟ كنتي فين الفترة اللي فاتت؟ البنت بتشوفك كل أسبوع مرتين أو تلاتة!"

ـ "كنت بشتغل.. بجيب فلوس للبيت.. بحقق اللي انت معرفتش تحققه!"

ـ "إحنا عمرنا ما طلبنا منك نعيش في المستوى ده، ولا عاوزين نمسك السحاب بإيدينا، طلباتنا أسرة من أب وأم وبنت وحيدة"

ـ "وماقلتش الكلام ده ليه وانت بتلهف الفلوس كل شهر!؟"

أشاح بوجهه عنها، فتابعت:

ـ "كانت مع مين آخر مرة؟"

ـ "كان معاها (مروة) بنت (أسامة الزياد) و(نيڤين)"

"طيب أنا هكلم (نيڤين)"

رفعت هاتفها، وطلبت رقمًا:

ـ "أيوة يا (نيڤين).. إزيك؟ هو إيه موضوع دروس الإنجليزي اللي كترت فجأة؟ أنا (دينا) تصرفتها مش عاجباني!"

ـ "إييه!!؟ مافيش دروس اليومين دول!!!؟ ده (مروة) قالت لنا إنهم عندهم دروس للامتحان"

ـ "آه والنبي اسأليها.."

نادت (نيڤين) (مروة) على الهاتف: "بتقول إن ماكانش في درس، (دينا) طلبت منها تقول كده... أنا هوريكي يا (مروة)!"

أغلقت (مديحة) الهاتف، ونظرت نظرة شاردة قبل أن تنادي بصوت عال تجاه غرفة (دينا):

ـ "دينا!!!"

خرجت (دينا) في منظر رث لأول مرة تشهده (مديحة).

ـ "أنا اتصلت بمامة (مروة)، وقالت إن مكانش فيه دروس، إنتي كنت بتروحي فين؟ انطقي!"

سكتت (دينا)، فتابعت (مديحة):

ـ "(دينا)، إحنا عمرنا ما بخلنا عليكي بحاجة، فيه إيه يا حبيبتي؟ فهميني!"

ـ "لأ.. بخلتي عليا بالأمومة اللي أي واحدة في سني محتاجاها، طول النهار شغل شغل، كأنك مش معانا"

ـ "أنا بعمل كده علشان أوفر لك حياة كريمة"

ـ "كريمة ماتت يا ماما.."

ـ "يعني إيه!؟ وإيه الكلام البيئة ده!؟ جبتيه منين؟"

ـ "أنا مبقيتش صغيرة يا ماما، بتعامليني كأني طفلة طول الوقت"

ـ "إنتي هتفضلي طفلة طول عمرك في نظري، إنتي كنت فين؟"

ـ "كنت بجيب وردة نادرة"

ـ "من مين؟"

ـ "من ناس بيبيعو ورد في العجوزة"

ـ "وايه اللي غيرك!؟ إنتي مش (دينا) بنتي الضحوكة، احكيلي.. أنا أمك"

ـ "مفيش حاجة يا ماما، أنا زي الفل أهو.."

ـ "طيب من النهاردة مفيش خروج، مافيش صحاب، مافيش زرع ولا ورد ولا زفت!"

ـ "أرجوكي يا ماما.. إنتي مش عارفة حاجة!"

ـ "بطلي كلام فارغ! طيب إيه رأيك إني هحرق الزرع كله!؟ انتبهي لدراستك وحياتك ومستقبلك... فاهمة!؟"

دخلت (دينا) غرفتها، وأغلقت الباب تبكي، نظرت (مديحة) إلى (حسن) الذي بدا واضحًا أنه لم يعجبه طريقة حديث زوجته.

نظر إليها دون أن ينبس ببنت شفة، قاطعهما صوت (صباح) الخادمة:

ـ "يا ست هانم! يا ست هانم!"

ـ "عايزة إيه إنتي كمان!!؟"

ـ "(دينا)..."

ـ "(دينا)!؟ مالها!؟"

ـ "شوفتها خارجة بتجري وبتوقف تاكسي، وجريت قبل ما ألحقها"

ـ "إيييه!!؟"

ركضت (مديحة) تحاول اللحاق بابنتها عند مدخل الفيلا، إلا أنها وصلت متأخرة حيث لم تجدها. لم يستطع جسم (مديحة) حملها، جثت على ركبتها وأخذت تبكي: "(دينا)!... (دينا)!"

مرت فترة ليست بالوجيزة، قدمت فيها (مديحة) عدة بلاغات لقسم الشرطة تحمل صور (دينا)، لم يتمكن أحدهم من إيجادها أو توفير المعلومات الكافية عن اختفائها، صار قلب (مديحة) فارغًا، تبكي ليلًا ونهارًا.. تنتظر باب الڤيلا ليُفتح يومًا بعودة (دينا) مبتسمة، قررت أنها لن تلومها أبدًا... لن

تعاتبها بعد اليوم، ستشتري لها جميع النباتات وتبحث معها عن جميع الأزهار.

*****

الفصل السابع

"أما اليوم فأنا مقتنع بأنه لا أحد يفقد أحدًا، لأنه لا أحد يمتلك أحدًا.. هذه هي التجربة الحقيقية للحرية"

باولو كويلو

في ليلة رأس السنة: الساعة الحادية عشر ليلًا..

في فيلا كبيرة في المهندسين، اجتمع رجال يوحي مظهرهم بأهمية مواقعهم البالغة، بعضهم كان من دول خليجية، وآخرين من دول المغرب العربي، والبقية من كبار الدولة في مصر.

وقف (نمر) يحرس مدخل الدور الأرضي، بينما جلست (سلوى) بابتسامة باهتة تصافح عددًا من الرجال المهمين برغم ما يعتصرها من ألم تجاه ابنتها، لم تكن لتتخلف عن هذا الموعد الذي قبضت فيه ما زاد عن المليون جنيه، كان يومًا منتظرًا، أعدت فيه الفتيات لإمتاع ضيوفهن، وأعدت (رزان) إلى السفر دون أن تدري، زجاجات النبيذ تتراص في كل مكان تجاورها المَزّة بأنواعها المختلفة من الفول السوداني والفستق والكاجو، دخان التبغ يتصاعد في كل مكان، همسات وضحكات وغمزات ولمسات، جلس بجانب (سلوى) رجل يلبس بدلة رمادية، ولديه لحية سوداء خفيفة، يتدلى منه كرش يوشك أن يفتك بالبدلة، عيناه بيضاويتان وأنفه مستقيم، مال على (سلوى)، وقال بلكنة عربية:

ـ "وصلك الشيك؟"

أجابت متصنعة البهجة والامتنان: "وصلني يا (سعيد) باشا.. تسلم على ذوقك أنا حضرتلك كل حاجة"

ـ "باشا!! الباشا هذه عنكم في كايرو، إحنا عندنا (سعيد) وبس"

"طيب يا (سعيد) وبس"

ضحك: "البنوتة جاهزة؟"

ـ "جاهزة ومظبطهالك على الآخر، إنت عرفت تختار، دي أجمل واحدة عندي"

ـ "مانا دفعت فيها مليون جنيه"

ـ "مليون جنيه مش كتير على سعادة الباشا"

ـ "تاني هتقول لي باشا!؟.... بس البنت تستاهل الصراحة، جمال إيه وجسم إيه"

أخرجت من حقيبتها وثيقة سفر وبعض الأوراق:

ـ "ده جواز السفر بتاعها، وبعض الأوراق اللي ممكن تحتاجها، جاهزة على بيت الباشـ.. قصدي بيت (سعيد) وبس"

ضحك ضحكة شيطانية.

أردفت: "بس هستسمحك ترقص رقصتها الأخيرة، أصل انت عارف الليلة الكل مستني رقصها".. غمزت: ـ "لكن واحد بس اللي هيفوز بيها"

ضحك بكامل فكيه.

دخلت (رزان) المطبخ.. كانت (بدوية) تعد صينيات كبيرة تضع فيها كؤوس النبيذ الأحمر.

ـ "إزيك يا (بدوية)"

ـ "إزيك يا (رزان)؟ إنتي لسة مالبستيش!؟ الليلة هتبدأ"

ـ "حالًا هلبس، الدنيا زحمة برة، وإنتي كمان شكلك مطحونة"

ـ "مطحونة بعقل؟ ده أنا نفسي أدخل الحمام من ساعة ما جيت ومش عارفة"

ـ "بقولك إيه.. سيبيلي أنا أصب النبيذ وروحي حمامك، وبالمرة تتممي على باقي البنات"

ـ "والله فيك الخير، طيب بصي، صبي النبيد بالتساوي، والمَزة على ٦ أطباق، وحطيهم في صينية كبيرة، كل ست كبايات في صينية"

ـ "إنتي تؤمري يا (بدوية)"

ـ "أنا شكلي ابتديت أحبك"

ـ "ربنا يخليك يا أحلى (بدوية)"

غادرت (بدوية)، فنظرت إليها (رزان) حتى انصرفت، أخرجت من جيبها كيسًا مملوءًا بالبودرة البيضاء.. أفرغت محتوياته في زجاجة النبيذ الرئيسية، ثم صبت القليل من النبيذ في كل كأس، نظرت في خوف إلى الكؤوس، ثم توجهت وارتدت بدلة الرقص المصنوعة على الطراز الخليجي.

دقت الساعة الحادية عشر والنصف، اشتعلت الموسيقى.. "يا طيب القلب وينك"... كانت (رزان) في وضع أخفى وجهها حين بدأت ترقص، زادها إثارة وغموضًا، بدأت تتحرك في تمايل على أنغام الموسيقى الصاخبة وسط تحديق وتصفيق من الحاضرين، تراصت الفتيات بالملابس الخليجية يغطين جزءًا من وجوههن، كان كل رجل من الحاضرين يشير إلى فتاة يختارها، فتناديها (سلوى) لتذهب معه إلى الغرفة في ليلة من الليالي الحمراء، تمسك (رزان) الصينية التي تحمل أكواب النبيذ، تتمايل بها على بعض الجالسين، ينتشل كل واحد منهم كأسًا يتجرعه دفعة واحدة كجرعة الدواء، تناولت (سلوى) كأسًا من النبيذ وضعته أمامها، قبل أن تتوقف الموسيقى، وتذهب (رزان) إلى الداخل.

(سعيد): ـ "يا الله!..."

ـ "مالك يا (سعيد) بيه؟"

ـ "دوخة بسيطة"

(سلوى): ـ "شكلك تعبان النهاردة، طيب كفاية شرب"

كانت تحاول التظاهر بالدبلوماسية في الحديث مع ضيوفها، إلا أنه بها ضيق نفس شديد وحزن بالغ يوشك أن ينفجر.

أخذت كأس نبيذها، وبدأت تتجرع النبيذ، أحست أن شيئًا صلبًا قد علق في فمها، أخرجته مستاءة ثم لم تلبث أن أطلقت شهقة عالية وهي تنظر في ذهول! لقد كان الخاتم الذهبي الصغير الذي أهدته إلى (دينا) في عيد ميلادها.

قامت من مكانها فجأة:

ـ "(دينا)!! دينا!!!..."

انطلقت كالمجنونة تجول في البيت في تعجب من الحاضرين، توجهت ناحية الغرف، فتحت أول غرفة فوجدت إحدى الفتيات بجانب رجل أعمال وقد نزعت ملابسها بالكامل.

فتحت الغرفة التالية فوجدت فتاة أخرى تقبل رجلًا، انطلقت إلى الغرفة الثالثة، فتحتها ثم توقفت لبرهة، وقد تسمر جسدها، واقشعر بدنها.. صرخت: ـ "(دينا).. (دينا).. إنتي إيه اللي جابك هنا!!؟ بتعملي إييه؟"

كانت (دينا) في أحضان رجل مسن على سرير تداعب شعره، توجهت (سلوى) إليها.. وانتزعتها، وأخذت تعانقها وتبكي: ـ "(دينا)!! مش ممكن!! أنا السبب! أنا السبب!!"

كانت (دينا) تنظر إليها في شرود تحت تأثير المخدر الذي بدا واضحًا في عينيها الحمراء المكسورة.

جثت (سلوى) على ركبتيها، بدأت تسعل بشدة، وتمسك قصبتها الهوائية.. أحست كأن سمًا بدأ يسري في جسدها.

كان الحاضرون في الصالة يسعلون جميعًا كمن أصابهم سل رئوي جماعي، ومنهم (نمر) الذي أمسك بحافة الأريكة، وأخذ يسعل بقوة.

*****

خرجت (رزان) من الباب الخلفي تحمل حقيبة يدوية، كان بانتظارها في الخارج (مصيلحي) يجلس في سيارة زرقاء قديمة.

فتحت (رزان) باب السيارة، قبل أن يقول (مصيلحي): ـ "تمام؟"

ـ "تمام خلاص، شكرًا يا (مصيلحي) كده انت رديت لي الجميل وزيادة"

ـ "أنا كده مرتاح يا (رزان)، قوليلي.. شافت بنتها؟"

ـ "أكيد.. طباخ السم مينفعش ميدوقوش"

ـ "ده أنا تعبت جدا في العملية.. علشان خاطرك بس والله وعلشان موقفك معايا، فضلت مراقب بيت (سلوى) ومدرسة بنتها في الزمالك كل يوم، عرفت إن بنتها بتحب الورد، هواية مجنونة ممكن توصلني لحاجة، وده فعلًا كان الطعم، اشترت ورد وخليتها تدمن فيه البودرة، وبقت تيجي كل يوم تقريبًا، ولما قربت ليلة راس السنة نفختها حقن بدل البودرة علشان نضمن إنها في جيبنا، كانت مستعدة لأي حاجة في سبيل الحقنة، تسرق فلوس وتجيبها لي لغاية ما مقدرتش تجيب تاني، قلتلها لازم تشتغل بنفسها وإلا مالهاش عندي حاجة.. وبكدة قدرت أجيبهالك النهاردة والباقي إنتي عارفاه.."

ـ "تسلم يا (مصيلحي)"

نظرت إليه، ثم قالت:

ـ "أنا دلوقتي بس غليلي اتشفى.."

ـ "طيب يللا اركبي أوصلك الحتة اللي إنتي عاوزاها.. يللا بسرعة قبل ما يحصل قلق تاني، إنت بقيتي حرة يا (رزان).. ياااه! أخيراً!"

ـ "لا، أنا هاخد تاكسي"

ـ "طيب براحتك، ربنا معاك، تليفوني معاك، أي حاجة تعوزيها كلميني"

خرجت من السيارة، وأغلقت الباب قبل أن تعود إلى (مصيلحي) قبل أن يغلق الشباك، أخرجت كأس نبيذ ببطء كانت قد غلفته بمنديل، ووضعته بين يديه:

ـ "في صحة الحرية"

نظر إلى الكأس برهة.. ابتسم، ثم تجرعه دفعة واحدة:

ـ "في صحة الحرية"

أوقفت بعدها (رزان) سيارة أجرة بيضاء التي انطلقت قبل أن تنظر من الزجاج الخلفي إلى (مصيلحي) الذي بدأ يسعل بشدة.

السائق: ـ "على فين يا ست هانم؟"

تنهدت: ـ "مش عارفة.. اطلع على الإسماعيلية"

تحرك السائق بالسيارة في الطريق إلى الإسماعيلية، بينما كانت تنظر (رزان) إلى الشوارع بجانبها.

كانت منهكة من أيام طويلة، متعبة من كل شيء..

أغمضت عينيها، وراحت في نوم عميق.. لحظات ورأت فيها رقعة الشطرنج الذهبية تقترب كعادتها.. نظرت إليها حتى اتضحت تفاصيلها.. كانت الرقعة هذه المرة خالية من الأحجار.. خالية تماماً.

(تمت)

الفهرس

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٦ ◄

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
أزمة ثقة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	كتاب جماعي
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
شعب مالوش كتالوج - ط٢	كتاب ساخر	أدمنز صفحة الضاكتور
انتفاضة العملاق الداخلي	كتاب تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافة الشرقاوي
فانتوبيا	رحلة فانتازية	إسلام علي/إلهامي مجدي
حياة خفيفة على جناح فراشة	تلوين للكبار	آلاء زهير
شمس بين الضباب	توثيقي	محمود إمام
مرايا الروح	تأملات	عبير جمال الدين
بعض منا	مجموعة قصصية	عبير جمال الدين
ناريسا	رواية	ميرفت البلتاجي
اتفضل في الصالون	رواية	محمد محسن
وراء الحواس	شبه رواية	ياسين أحمد سعيد
مدينة العذارى	مجموعة قصصية	إسلام الحادي


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع